سورة الصلاة

ترتج بها المساجد والمصليات.. ولكن!!

تأليف:

عبدالحكيم بن عبدالله القاسم

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

سُورَةُ الصّلاةِ

تَرْتجّ بهَا المَسَاجِدُ والمُصَلّيَاتُ.. ولَكِنْ!

تأليف

د. عبد الحكيم بن عبد الله القاسم

الطبعة الخامسة مزيدة ومنقّحة

ح مجلة البيان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القاسم، عبد الحكيم عبد الله

سورة الصلاة ترتج بها المساجد والمصليات ولكن..!.
الرياض، ١٤٢٨، ص ٨٨؛ ١٧× ٢٤

ردمك: ٥-٨-٩٨٣٥-٩٩٦٠-٩٧٨

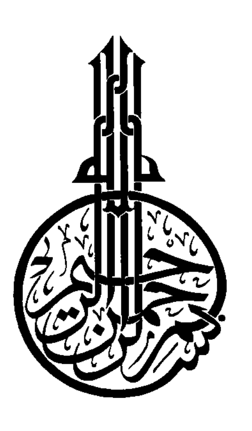
١- الصلاة. أ- العنوان

أ. العنوان

ديوي ٦, ٢٢٧ ٤٩٠٨/١٤٢٩

رقم الإيداع: ٤٩٠٨/١٤٢٨

ردمك: ٩٧٨،٩٩٦٠،٩٨٣٥،٨،٥



المقـــدمـــة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]، أما بعد:

فهذه وقفة تدبُّر أَمَرَنا الله - عز وجل - بها؛ في قوله: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، والتدبر هو الوقوف على مقصود الكلام ونهاياته ومآلاته التي يتضمنها ويحتملها.

ولقد قسم الله الناس من حيث التدبر إلى قسمين: فقال: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، فقسم متدبر للقرآن وقسم غافل. واستدل القرطبي بهذه الآية على وجوب تدبر القرآن ليعرف معناه[١]، وعاب الله تعالى على مَن ترك التدبر فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

فينبغي على كل مكلف تأمل هذا القرآن وتدبره وفهم آياته.

وينقسم الناس تجاه حجة القرآن إلى قسمين أيضاً: حيث قال النبي ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك»[٢].

أيها الأحبة: فلنفتح قلوبنا على كتاب ربنا، وليأخذ القلب غذاءه من روح الله ونوره: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

أخي: افترض أن رسالة مسجلة وصلت إليك، ممهورة بختم مؤسسة عالمية مشهورة، وعليها مبلغ ١,٠٠٠,٠٠٠ من العملة الصعبة.. وتضمنت الرسالة تاريخاً سارياً، وتضمنت عناصر تشبه في هيئتها هيئة شروط تحصيل هذه الجائزة!

فيا ترى كيف تفعل بهذه الرسالة؟!

إن اللبيب العاقل سيأخذها بعناية، ويبادر بالذهاب لمن يترجمها له، ولن يرضى بغير أفضل المترجمين المعتمدين، وسيوصيهم ببذل الجهد في أن تكون الترجمة صحيحة دقيقة!

إن ذلك شيء حسن، ولا تثريب على الإنسان في حرصه على المال وترقبه له ما دام من وجه صحيح مباح.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي عند آية النساء (٨٢)، وانظر نحوه للنحاس في إعراب القرآن ١/ ٤٧٤.

(٢) رواه مسلم برقم ٢٢٣ عن أبي مالك الأشعري، رضي الله عنه.

ولكن كيف إذا كانت هذه الرسالة إلهية وليست بشرية ؛ حيث تكلم بها الإله الحق المبين سبحانه وتعالى؟! قال الحسن: «إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار»[1].

وقد وعد الله ـ تعالى ـ بتيسير كتابه للتذكر في أربعة مواضع من سورة القمر فقال: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧ ٢٢ ٣٢ ٤٠].

فحريٌّ بالمؤمن سؤال ربه تعالى أن يمنّ عليه فينفعه بكتابه، وليبذل جُهده للوقوف على معاني كلام الله الحكيم الخبير[2].

ولينظر كل منا: ما ربيع القرآن في قلبه؟! فلا شك أن للتدبر ثمرات في القلب يتبعها سلوك الجوارح. قال مالك بن دينار ـ رحمه الله: «ما زرع الإيمان في قلوبكم يا أهل القرآن؟! إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض! . . . فيا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحاب سورة؟! أين أصحاب سورتين؟! ماذا عملتم فيهما؟!»[3].

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٢٧٥؛ والمحرر الوجيز ١/ ٣٩؛ والتبيان في آداب حملة القرآن، الباب الخامس.

(٢) دعاء إزالة الهم والحزن، جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً. رواه الإمام أحمد في المسند ٦/٢٤٦ ح ٣٧١٢؛ وابن حبان في صحيحه ٣/ ٢٥٣ ح ٩٧٢؛ والحاكم فيالمستدرك ١/٦٩٠ ح ١٨٧٧؛ والطبراني في الكبير ١٠/ ١٦٩ح ١٠٣٥٢؛ وأبو يعلى في مسنده ٩/ ١٩٨ح ٥٢٩٧؛ وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ح ٢٧٦؛ ولفظه: «ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك. . ثم قال: . . أن تجعل القرآن ربيع قلبي. .» الحديث. وحسنه ابن حجر في تخريج الأذكار؛ والألباني في الصحيحة ١٩٩؛ وفي صحيح الكلم الطيب ١٠٢. والصواب أنه ضعيف قاله الدارقطني في العلل ٥/ ٢٠١، انظر تحقيق المسند (طبعة التركي) ٦/ ٢٤٧ـ٢٥٠، وعليه فلا يواظب على لفظ هذا الدعاء لضعفه مرفوعاً. والله أعلم.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٣٥٨ـ٣٥٩.

ولينظر كل إلى قلبه! فإن نور القرآن إذا استقرّ في القلب أصبح يرى بنور الله فيرى المحبوب عند الله محبوباً عنده، والمبغض مبغضاً، والقوي قوياً، والضعيف ضعيفاً، والفاني فانياً، والباقي باقياً، والرفيع رفيعاً، والوضيع وضيعاً.

وأما من أعرض عن كتاب الله ولم يتدبره ولم يتفكر فيه فقد عرض نفسه لمهالك وظلمات ووحشة وقلق ملازم قال ـ تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٧]. والمراد بقوله: ﴿ذِكْرِي﴾ القرآن، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال في الآية نفسها: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾.

أخي الكريم: إن القرآن الكريم رسالة من الله لكل مكلف؛ تدعوه للادّكار والاعتبار والتدبر والعمل: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [المدثر: ٥٤ – ٥٥]، ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١١ – ١٢].

ولذلك كان إحسان القراءة بالترتيل والتدبر أفضل من كثرة القراءة وهذّها بغير فهم، قال أبو جمرة: قلت لابن عباس ـ رضي الله عنهما: إني رجل سريع القراءة، وربما قرأت القرآن في ليلة مرة أو مرتين! فقال ابن عباس: «لأن أقرأ سورة واحدة أعجب إلي من أن أفعل مثل الذي تفعل؛ فإن كنت فاعلاً لا بد فاقرأه قراءة تسمع أذنيك ويعيه قلبك»[1].

(١) رواه البيهقي في سننه الكبرى، ح ٤٤٩١.

ومن الوسائل المعينة على تدبر القرآن وفهم آياته ومقاصده النظر في كتب التفسير، فتقرأ في تفاسيره المحققة، تبدأ بالمختصرة الميسرة ثم ترتقي[1]. ثم إن التدبر إنما هو وسيلة لغاية عظيمة هي الاستجابة لمراد الله تعالى والاستقامة عليه؛ ليحصل المكلف بذلك على السعادة الحقيقية في الحال والمآل.

هذا وإن الأمر بالتدبر متأكد في آيات الفاتحة لعظمها، فهي عمود الصلاة، وهي أم القرآن؛ فليت كل واحد منا يتأمل أنه يناجي ربه في صلاته، ففي الحديث القدسي: قال الله ـ تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾؛ قال الله ـ تعالى: حمدني عبدي. فإذا قال: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾؛ قال الله ـ تعالى ـ: أثنى عليّ عبدي. فإذا قال: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾؛ قال: مجّدني عبدي. وقال مرة: فوّض إلي عبدي[2]. فإذا قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾؛ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**﴾؛ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[3]. والمراد بقوله: «قسمت الصلاة» أي: سورة الفاتحة؛ لأنه لم يذكر إلا آيات الفاتحة، وسميت الفاتحة بالصلاة؛ لأنها عمودُ كل ركعة في الصلاة، ومن هذا الحديث القدسي أخذت تسمية هذا الكتاب.

---

(١) ومن المنهجية الحسنة: البداية بغريب الكلمات مثل كتاب: (السراج في بيان غريب القرآن) للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضيري.
ثم يقرأ في التفاسير الإجمالية المختصرة؛ كالتفسير الميسر، وزبدة التفسير، وتفسير السعدي ونحوها.
ثم يقرأ ما هو أوسع منها بعد ذلك، مع حرص شديد على فهم سلف هذه الأمة وقرونها المفضلة، وخاصة في مسائل الاعتقاد!.

(٢) فوّضت الأمر إلى فلان، أي: صيّرته إليه، وجعلته الحاكم فيه. فالمؤمن جعل الحكم وصيره كله لله وحده في يوم القيامة، فهو تمجيد لله بوصفه ـ تعالى ـ بالعظمة.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥.

إن لدعاء الفاتحة منزلة عظيمة: فالعبد مضطر دائماً إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء، فإنه لا نجاة من العذاب، ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية، فمن فاته فهو: إما من المغضوب عليهم، وإما من الضالين.

«وهو أجلُّ مطلوب، وأعظم مسؤول، ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لواظب عليه كل حين وقرنه بأنفاسه؛ فإنه لم يدعْ شيئاً من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه؛ ولـمّا كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضاً متكرراً في اليوم والليلة؛ لا يقوم غيره مقامه، ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة، وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها»[1].

والمسلمون يدعون في كل ركعة من صلواتهم بهذه السورة العظيمة، وترتج بتأمينهم عليها المساجد والمصليات، غير أن مِنْ المسلمين مَنْ لا يعرف معناها، فلو أدرت إليك أحدهم وقلت: بم دعوت؟ لتلكأ، وما درى الجواب!

إن الجهل بمعنى الدعاء سبب لحجب الإجابة؛ لأنه نوع غفلة عن الدعاء، وقد روي في الحديث: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[2]. فإن كان مع هذا الدعاء العظيم في هذه العبادة العظيمة علم بمعانيها وتأمل في مقاصدها كان ذلك أدعى لاستجابة الدعاء وقبوله عند الله تعالى.

---

(١) بدائع التفسير ١ / ٢٢٣، جمع يسري السيد محمد.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الدعوات، باب: في إيجاب الدعاء بتقديم الحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ قبله، رقم ٣٤٧٩، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه؛ والطبراني في الأوسط ٥١٠٩، وقال: لم يروِ هذا الحديث عن هشام بن حسان إلا صالح المري؛ والحاكم في المستدرك، في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل، ١ / ٤٩٣، وقال: تفرد به صالح المري، وقال الذهبي معقباً: صالح متروك؛ وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في السلسلة الصحيحة، رقم ٥٩٤؛ وضعفه عمرو عبد المنعم سليم مع جمعه لشواهده وهو الصواب. انظر: تيسير دراسة الأسانيد ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩.

فاحتسب - أخي - أن تتأمل هذه السورة وأن تتدبر معانيها العظيمة مرة بعد أخرى، كما تستذكر معانيها كلما قرأتها وسمعتها، وليتواطأ قلبك مع لسانك في هذا الدعاء؛ لتجني ثمراته في الدنيا والآخرة.

واعلم أن ما أمرت بالدعاء به فأنت مأمور بالعمل على تحصيله بجوارحك، وهو عبادة الله واستعانته[1]، فيتواطأ على هذا الدعاء: القلبُ واللسان والجوارح.

ورغبة في تحصيل بركة هذه السورة وما تضمنته من دعاء عظيم؛ أحببت أن أجمع فوائد مهمة تتعلق بمعانيها؛ لتكون عوناً للداعي وتذكيراً بما يعرف منه فيدرك من سؤاله أكمل الإجابة وأحسنها. والله الموفق.

المؤلف

عبد الحكيم بن عبد الله بن عبد الرحمن القاسم

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن

البريد الإلكتروني: aabuhkeem@gmail . com

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ١٤/ ٨.

التمهيـــد

قبل عرض معاني هذه السورة العظيمة، أقدم لها تمهيداً أتحدث فيه عن أمرين: **الأول**: وقت نزول السورة على النبي ﷺ، **والثاني**: ذكر شيء من فضائلها بإيجاز؛ ولذلك أثرٌ في بيان منزلة السورة وإدراك معانيها.

الأول: مرحلة نزول سورة الفاتحة:

للعلماء أقوال ثلاثة في المرحلة الزمنية التي نزلت فيها سورة الفاتحة: فقيل: هي مكية؛ أي: نزلت قبل الهجرة. وقيل: بل هي مدنية؛ أي: نزلت بعد الهجرة. وقيل: بل نزلت مرتين، قبل الهجرة وبعدها.

والظاهر - والله أعلم - أنها نزلت قبل الهجرة، ودليل ذلك قوله - تعالى -: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [**الحجر**: ٨٧]، ووجه دلالة هذه الآية على الفاتحة: ورود الفاتحة باسم السبع المثاني[١]، وأما كونها مكية: فهذه الآية من سورة الحجر وهي مكية، ثم إن الخبر جاء على صيغة الماضي ﴿**آتَيْنَاكَ**﴾.

---

(١) ليس هناك من السور ما عدد آياته سبع اتفاقاً غير الفاتحة، واختلف في سورة الماعون فقيل: آياتها سبع، وقيل: ست. انظر: روح المعاني، للآلوسي، ١/ ٦٨، وقد عدت سبع آيات عند أهل العدّ في الكوفة والبصرة. انظر: البيان في عد آي القرآن للدّاني ١/ ٢٩١.

الثاني: ذكر شيء من فضائل السورة:

لسورة الفاتحة فضائل كثيرة؛ من أهمها:

❶ أن الصلاة لا تصح بغيرها، فكما أن (الصلاة) عمود الإسلام، فكذلك (الفاتحة) عمود الصلاة.

❷ أنها أعظم سورة في القرآن؛ كما روى أبو سعيد بن المعلى - رضي الله عنه - قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله: إني كنت أصلي. فقال: ألم يقل الله: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ**﴾ [**الأنفال**: ٢٤]؟! ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**الفاتحة**: ٢] هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[١].

❸ أن لها شأناً عظيماً في الرقية يدل عليه قصة أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يَقْرُوهم[٢]، فبينما هم كذلك إذ لُدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تَقْرُونا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعْلاً! فجعلوا لهم قطيعاً من الشّاء، فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بُزَاقه ويتفل؛ فبرأ، فأتوا بالشّاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ! فسألوه، فضحك وقال: «وما أدراك أنها رقية؟! خذوها واضربوا لي بسهم»[٣]، وفي لفظ: «فانطلق يتفل ويقرأ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [**الفاتحة**: ٢]،

(١) رواه البخاري في التفسير، باب: ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم ٤٤٧٤.
(٢) أي: يضيفوهم ويطعموهم.
(٣) رواه البخاري في الطب، باب: الرقى بفاتحة الكتاب، رقم ٥٧٣٦.

فكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي وما به قَلَبة»[1]، وفيه قال ﷺ: «قد أصبتم»[2].
ومعنى قوله ﷺ: «وما أدراك أنها رقية؟!» التقرير والتصويب للرقية بها؛ مع إظهار الإعجاب بحسن الاختيار لها من بين سور القرآن.

❹ أنها نور، ونزلت خاصة بالنبي ﷺ دون سائر الأنبياء، ونزل بالبشارة بها مَلَك، ووُعِد ﷺ بإعطاء ما احتوى عليه معناها؛ فعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً[3] من فوقه، فرفع رأسه فقال: «هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم»، فنزل منه ملك فقال: «هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم وقال: «أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[4].

فقد وعد الله رسوله ﷺ في هذا الحديث بأن يعطى ما حوته الفاتحة وخواتيم البقرة من فضائل وخصائص، وهذا وعد له ولمن تبعه من أمته، على حسب إخلاصهم لله ومتابعتهم لرسول الله ﷺ.

---

(١) قلبة أي: علة.

(٢) رواه البخاري في الإجارة، باب: ما يعطى من الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب، رقم ٢٢٧٦. والذي رقى اللديغ هو أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أي: صوتاً كصوت الباب إذا فتح.

(٤) رواه مسلم بلفظه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبوبه النووي وعنونه بكتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب: فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، رقم ١٨٧٧، والنسائي بنحوه في كتاب الصلاة، باب: فضل فاتحة الكتاب، رقم ٩١٣. وجاء في حديث آخر ذكر الفاتحة فقط بأنها: «لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها»، رواه مالك في الموطأ ١٨٦؛ وأحمد في مسنده ح ٩٣٣٤، وابن خزيمة في صحيحه، ١ / ٢٥٢؛ والترمذي في كتاب فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل الفاتحة، رقم ٢٨٧٥، وقال: حديث حسن صحيح؛ والحاكم في المستدرك ح ٢٠٤٨ وغيرهم.

⑤ كثرة أسماء الفاتحة: وكثرة الأسماء دليل عِظَم، وكل شيء بحسبه؛ ومن ذلك: كثرة أسماء الله تعالى، وتعدد أسماء رسوله ﷺ، وكذا اليوم الآخر، والجنة، والنار، والأسد، والسيف، وغيرها.

ومن أسماء سورة الفاتحة المأثورة:

فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والقرآن العظيم، والصلاة، ومن أوصافها: أنها نور، ورقية...[1].

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ١ / ١٦٧ ـ ١٧١. وذكر أسماء وأوصافاً كثيرة.

ســـورة الفاتحـــة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ١ – ٧

البسملة: بسم الله الرحمن الرحيم:

هذه التسمية «البَسْمَلَة» تسمى في اللغة : النحت[1]، وهي : صياغة فعل ماض على وزن «فَعْلَلَ»، ومن هذا النوع : «سَبْحَلَ» لجملة : سبحان الله، و«حَيْعَلَ» لجملة : حي على الصلاة، و«حَوْقَلَ» لجملة : لا حول ولا قوة إلا بالله، و«حَمْدَلَ» لجملة : الحمد لله، و «هَلَّلَ» لجملة : لا إله إلا الله، ونحوها.

ومعنى جملة البسملة: الباء حرف جر بمعنى الملابسة والإلصاق، وهو متعلق بفعل محذوف مقدّر بنيّة المتكلم حال تسميته : عند قراءة أو أكل أو أي عمل. ومعنى : باسم الله : أبتدئ عملي باسم الله مستعيناً به، قال ـ تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾ [الأعراف : ١٢٨ ، والمستعين هو المتكلم، والمستعان عليه محذوف يتحدد

(١) فقه اللغة للثعالبي ص ٢٢٤ .

بالنيّة، والمستعان به جميع أسماء الله تعالى؛ لأن الاسم في البسملة مفرد مضاف لله، فيعمّ جميع أسماء الله الحسنى[١].

واسم الله ـ تعالى ـ دالّ على الألوهة، وهي: العبادة مع غاية المحبة وغاية التعظيم والخضوع، ومنه قول قوم فرعون لفرعون: ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ**﴾ [**الأعراف**: ١٢٧]، أي: وعبادتك، وقال ـ تعالى ـ: ﴿**وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ**﴾ [**الأنعام**: ٣] أي: المعبود في السموات، والمعبود بحق في الأرض. على أظهر الأقوال في معنى الآية، ولا يستحق أن يعبد إلا من استكمل صفات الكمال والجمال والجلال.

وهذا الاسم يتضمن توحيد الألوهية: وهو توحيد الله بأفعال العبد؛ كأفعال العبد القلبية الباطنة: من الخشية، والمحبة، والخضوع، والتوكل، ونحوها. أو أفعال العبد الظاهرة على الجوارح؛ كالصلاة، والذبح، والزكاة، ونحوها. وهذا النوع من التوحيد هو الذي وقع فيه الاختلاف بين الرسل وأقوامها، فقالت قريش: ﴿**أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾ [**ص**: ٥].

واسم الله لا يسمّى به غير الله تعالى، وهو الاسم العَلَم عليه تعالى، «فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا، بالدلالات الثلاث[٢]، فإنه دال

(١) تشرع التسمية: وجوباً عند: الأكل، والشرب، والذبح، وإرسال الصيد، واستحباباً عند: الوضوء، وإتيان الرجل أهله، والنوم، وكتابة الرسالة، كما في كتاب سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ لملكة سبأ، وكتاب محمد ﷺ لكسرى وقيصر وغيرهما، ويكره عند: فعل المكروه، والمحرم.

(٢) أي: دلالة المطابقة والتضمن واللزوم: فدلالة المطابقة: تفسير الاسم بجميع مدلوله، كالبيت: دالّ على معنى لفظ البيت المعروف. بدلالة المطابقة.

ودلالة التضمن: كدلالة البيت على السقف؛ لأن البيت يتضمن سقفاً وحيطاناً.

ودلالة الالتزام: كدلالة لفظ السقف على الحائط، لكنه كالرفيق الملازم الذي لا ينفك عن السقف.

انظر المستصفى من علم الأصول ١/ ٧٧، تحقيق إبراهيم محمد رمضان.

على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه، وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله ـ تعالى ـ سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ويقال: الرحمن والرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك.

فعُلِم أن اسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله.

واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً، تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب.

وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته.

وملكه مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله»[1].

الرحمن: اسم لله ـ تعالى ـ يدل على أن الرحمة وصف له ذاتي؛ ولذلك كان ورود هذا الاسم بوصف الرحمة دون متعلّقها، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ولم يرد في النصوص تخصيص اسم «الرحمن» بالمؤمنين ونحوهم، بل ورد ذلك في اسم «الرحيم»[2].

(١) مدارج السالكين، ١/ ٣٢ـ٣٣.
(٢) انظر: بدائع التفسير، ١/ ١٣٧.

واسم الرحمن لا يجوز للمخلوق التسمي به، وقد تسمى به كافر متنبئ على وجه مخصوص، فكان يُدعَى: رحمان اليمامة؛ فأصبح يدعى: مسيلمة الكذاب[1].

والواجب التحرّز من ذلك الإلحاد والميل في أسماء الله، والرجوع عن ذلك عند العلم، قال-تعالى-: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ومن الإلحاد المحرم: التسمي بها، أو تعطيل معانيها، ونحو ذلك[2].

وقد أنكر المشركون اسم الرحمن، وجاء تقرير هذا الاسم في السور المكية إلا موضعاً واحداً في سورة البقرة، فقد تكرر وروده في سورة مريم وحدها ست عشرة مرة، وفي الزخرف سبعاً، وفي الفرقان خمساً، وفي طه والأنبياء ويس والملك أربعاً، وفي النبأ مرتين.

الرحيم: اسم لله يدل على إيصاله الرحمة إلى عباده، والرحيم رحمته الفعلية التي يفعلها متى شاء.

ورحمة الله-تعالى-لخلقه على نوعين:

الأول: رحمة عامة لجميع الخلق، المؤمنين والكافرين وسائر المخلوقات؛ فالله-عز وجل-وسعت رحمته كل شيء، وما خلقُه ورزقه وتقديره وكتابته إلا دليل هذه الرحمة الشاملة.

يدل عليها: قوله-تعالى-عن حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] ومن رحمة الله العامة الغيث، قال-تعالى-: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ

(١) وذكر بعضهم أن تسمّيه بهذا من باب الغلو في الكفر ومحادة المسلمين. انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١/ ١٧٢.

(٢) انظر: بدائع التفسير ٢/ ٣١٤-٣١٧.

كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠ ومن رحمته تأخير العقوبة والإمهال قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨ .

والثاني: رحمة خاصة بالمؤمنين يدلّ عليها قوله ـ تعالى ـ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣ [(١)]، ولما رأى النبي ﷺ امرأةً من السّبي تبتغي (أي: تطلب) إذا وجدت صبياً في السّبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ـ قال: «أترون هذه المرأة طارحةً ولدها في النار؟» قلنا: لا والله! وهي تقدر على أن لا تطرحه؛ فقال رسول الله ﷺ: «لَلَّه أرحم بعباده من هذه بولدها»[(٢)]. ورحمته تعالى هي الأعلى والأغلى؛ إذ بها يكتمل نور الإيمان، ويتدرج بها العبد في منازل الجنان.

وقد يوصف المخلوق بالرحمة كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨ .

والواجب على السامع مراعاة الفرق بين رحمة المخلوق المناسبة له ولضعفه ولفنائه، وبين رحمة الخالق القوي المتين الحي القيوم ـ سبحانه وتعالى ـ كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله مائة رحمة، أنزل منها رحمةً واحدةً بين الجن والإنس والبهائم والهوام؛ فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١ / ٢٠. صلاة الملائكة الدعاء، وصلاة الله ـ تعالى ـ الثناء على المؤمن في الملأ الأعلى، ومن معانيها الرحمة.

(٢) رواه البخاري في باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ح ٥٩٩٩؛ ومسلم، عن عمر الفاروق رضي الله عنه، في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها تغلب غضبه، رقم ٢٧٥٤، وقد ذكر شراح الحديث أن المراد بعباده هنا: هم المؤمنون.

الوحش على ولدها، وأخّر الله تسعاً وتسعين رحمةً يرحم بها عباده يوم القيامة»[1]، فكل رحمات المخلوقين جزء واحد من مائة رحمة من رحمات الله؛ فسبحان الرب الرحيم ما أوسع رحمته!

هل البسملة آية من الفاتحة؟

اختلف الصحابة ومن بعدهم من القراء وأهل علم عدّ الآي في الأمصار في ذلك:

فعند أهل العدّ في مكة والكوفة أنها آية من الفاتحة، وقراءة حفص عن عاصم على هذا.

وعند أهل العدّ في المدينة والبصرة والشام ليست بآية من الفاتحة[2].

وأما المصاحف التي أرسل بها عثمان ـ رضي الله عنه ـ إلى الأمصار فقد كانت خالية من تعيين الآيات وعدّها، بل كانت خالية من ضبط الحركات ونقط الحروف ـ على ما كانت الكتابة سائدة في ذلك الزمان[3].

والذي يظهر ويترجح أن البسملة ليست آية من الفاتحة، وأوضح الأدلة على ذلك:

❶ وقوع الخلاف في عدّها آية، قال الأصوليون: «وقوة الشبهة في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مَنَعَت التكفير من الجانبين فدل على أنها ليست من المسائل

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب التوبة، باب: في سعة رحمة الله تعالى، وأنها تغلب غضبه، رقم ٢٧٥٢.

(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر، لأحمد بن محمد البنا، ١ / ٣٥٧.

(٣) انظر: المحكم للداني ص ٢ ـ ٣.

القطعية»[1].

❷ قول الله - عز وجل - في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾؛ قال الله - تعالى -: حمدني عبدي. فإذا قال: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾؛ قال الله - تعالى -: أثنى علي عبدي. فإذا قال: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾؛ قال: مجّدني عبدي. وقال مرة: فوّض إلي عبدي[2]. فإذا قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾؛ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾؛ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»[3].

فهنا قسم الفاتحة إلى نصفين، النصف الأول: من قوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ إلى قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾. والنصف الثاني: من قوله: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ إلى آخرها، فلم يذكر البسملة، ولو كانت من الفاتحة لبدأ بها.

ثم إن النصفين متماثلان، وعلى عدّ البسملة آية فعدد الآيات إلى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ أربع آيات ونصف، ويكون الباقي بعدها آيتين ونصف آية، وهذه القسمة لآيات الفاتحة ليست متناصفة، فلا توافق التقسيم الوارد في الحديث القدسي.

---

(١) كشاف القناع للبهوتي ١/ ٣٣٦. ذهب بعض العلماء إلى اعتبار الخلاف في عدّ البسملة هو من باب الاختلاف في القراءات المتواترة، وممن ذهب لذلك الزمخشري في الكشاف ١/ ٢، والبيضاوي ١/ ١٢ مع حاشية شيخ زادة، والشيخ عبدا لعزيز بن مرزوق الطريفي في صِفَة صلاة النبي ﷺ ص ٧٩ - ٨٠. وانظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١/ ١٤٥/ ١٤٦، فقد أجاب على هذا جواباً معتبراً. والله أعلم.

(٢) فوّضت الأمر إلى فلان، أي: صيّرته إليه، وجعلته الحاكم فيه. فالمؤمن جعل الحكم وصيره كله لله وحده في يوم القيامة، فهو تمجيد بوصف الله - تعالى - بالعظمة.

(٣) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٣٩٥؛ ومالك في الموطأ ح ١٨٨؛ وأحمد في مسنده ح ٩٩٣٤.

وعلى عدّ البسملة آية تكون الآية الأخيرة طويلةً جداً، فلا تناسب آيات الفاتحة في قصرها.

❸ ولو كانت البسملة آية من الفاتحة لكان بعض لفظها ومعناها معاداً مرّةً أخرى في قوله ـ تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ بدون فصل معتبر، ولا فائدة جديدة، وكانت الاستعانة في: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ معاداً معناها مع قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والفاتحة أمّ القرآن ولبّه فيبعد أن يكون فيها تكرارٌ مجرّد، بل يذكر فيها أمهات المعاني المهمات.

وما سبق ذكره لا يعني أن البسملة ليست بآية مطلقاً، بل هي آية مستقلة من القرآن؛ نزلت للفصل بين السور، وهذا قول الجمهور، والله أعلم[1].

(١) (١) انظر: مجموع الفتاوى، ٢٢ / ٣٥١. وللخلاف في البسملة أثر في وجوب قراءتها في الصلاة؛ فمن قال: هي آية منها؛ وجب عليه قراءتها، وإلا فهي سنة. انظر: المغني، لابن قدامة، ٢ / ١٥١. وأما الجهر بالبسملة في الصلاة الجهرية فلا يسن، وقد نقل الطحاوي التواتر على أن النبي ﷺ وأصحابه لم يكونوا يجهرون بها. شرح معاني الآثار، باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة. قال ابن رجب: قال العقيلي: لا يصح في الجهر بالبسملة حديثٌ مسند، وحكي مثله عن الدار قطني. وما ينقل عنه في سننه من تصحيح أحاديث في هذا الباب فلا توجد في جميع النسخ بل في بعضها، فلعلها زيادة من بعض الرواة. فتح الباري لابن رجب كتاب الصلاة، باب: ما يقول بعد التكبير.
وقد بدأت بالبسملة وفسرتها هنا؛ لأن المصلي يشرع له قراءتها؛ ولكونها آية مستقلة من القرآن؛ ولأن هذا هو أول ورود لها في المصحف.

الآية الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

معنى الحمد، والفرق بينه وبين الشكر والمدح:

الحمد: ذكر المحمود بصفات الكمال الاختياري مع محبة المحمود، وضده الذم، وهو الإخبار بمساوئ المذموم مع بغض للمذموم.

والألف واللام في «الحمد» لاستغراق جميع أنواع المحامد لله تعالى.

ويفترق الحمد عن الشكر بأشياء؛ منها:

• أن الحمد يتضمن المدح والثناء على كل حال في السراء والضراء، والشكر يكون عند النعمة الحاضرة فقط، فالحمد هنا أعم.

• والفرق الآخر في الآلة الفاعلة للحمد أو الشكر: فالحمد بالقلب واللسان فقط، والشكر بالقلب واللسان والجوارح، قال ـ تعالى ـ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣] [١]. فيدخل في العمل قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح[٢]، فالشكر هنا أعم.

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١ / ٢١.

(٢) قول القلب هو الاعتقاد والتصديق والإيقان. وعمل القلب هو: الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها. انظر: إغاثة اللهفان ١/ ٨، ومعارج القبول ١٥/ ٢.

ويفترق الحمد عن المدح بأمور منها:

• أن الحمد ذكر الصفات الحسنة مع المحبة، ولا يلزم المدح وجود محبة، فالحمد أخص.

• أن الحمد يكون على الفعل الاختياري فقط، أما المدح فعلى الفعل الاختياري وغيره، فيمدح الإنسان لطول قامته وجماله وليس ذلك من اختياره، ويمدح لحسن أخلاقه وهو من اختياره فالمدح أعم[1].

أحق كلمة قالها العباد: (الحمد لله):

ومعنى اللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق، فالمستحق لهذا الحمد الخالص الشامل هو الله تعالى[2]؛ فكل حمد صحيح لمخلوق فالله ـ سبحانه ـ هو المستحق له كله، وهو الأولى به على أعلى صفات الكمال؛ لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ هو مقدّره ومسبّبه وميسّره، قال ـ تعالى ـ: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، ورُوي في الحديث: «اللهم لك الحمد كله»[3]، وجاء في فضل قول «الحمد لله» أنها: «أفضل

---

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني للفاتحة مع أول البقرة ص ٢١٨، وعنوانه مقدمة جامع التفاسير.

(٢) انظر: تفسير جامع البيان، للطبري، ١ / ٩٠.

(٣) رواه أحمد، ٣ / ٤٢٤؛ والحاكم في المستدرك عن رفاعة بن رافع رضي الله عنه، ١ / ٥٠٦، ٥٠٧؛ والطبراني في الكبير، ٥ / ٤٠؛ والبخاري في الأدب المفرد، ١ / ٢٤٣؛ وذكره الألباني ـ رحمه الله ـ في صحيح الأدب المفرد، رقم ٥٤١/٦٩٩.
وأشار الإمام أحمد إلى إرساله في الإسناد. انظر: المسند ٢٤/٢٤٦ ح ١٥٤٩٢، وروى أحمد في موضع هذه الجملة عن حذيفة مرفوعاً ح ٢٣٣٥٥، وإسناده ضعيف لإبهام رجل، ٣٨/٣٧٨ ـ ٣٧٩.

الدعاء»[1]، ومن فضلها أيضاً مع «سبحان الله» أنهما: «تملأ الميزان»[2].

ولذلك كانت «الحمد لله» أحق كلمة يقولها العبد، كما كان ﷺ يقول بعد الرفع من الركوع: «ربنا لك الحمد، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهلَ الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[3].

وكأن هذا الحمد وذكر الثناء والمجد لله ـ تعالى ـ بعد الرفع من الركوع تأكيدٌ وتكرير لما ورد في الفاتحة، ولما ورد في الركوع أيضاً؛ فيقول الإمام كما أمره الرسول ﷺ أن الله سمع لحامديه، أي: قَبِلَ حمدهم وثناءهم وتمجيدهم.

فالعباد يقولون الحق ويقولون الباطل، ولكن أصدق ما يقوله العباد وأعلاه: الحمد لله تعالى.

كما أن الحمد التام يتضمن التوحيد، فهو يقر بأن الله وحده مستحق لكل الحمد؛ فهو أولى بأن يعبد لأنه أولى أن يحمد، ويستلزم هذا الحمد الإقرار بكمال حكمة الله

---

(١) رواه الترمذي برقم ٣٣٨٣، وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم، وقد روى علي بن المديني وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث؛ والنسائي برقم ١٠٦٩؛ وابن ماجه برقم ٣٨٠٠؛ وابن حبان، ٣/ ١٢٦ ح ٨٤؛ والحاكم في المستدرك ح ١٨٣٤ و ١٨٥٢ وصححاه، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه.
والحمد أفضل الدعاء؛ لأمرين:
لأن التعريض عند الكريم كافٍ في العطاء الجزيل، والله أكرم معطٍ.
أو أن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب. انظر: الفتاوى ١٥/ ١٩؛ وبدائع الفوائد، ٣/ ٥٢١؛ والروضة الندية شرح الواسطية، ص ٢٧٨.

(٢) رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، في كتاب الطهارة، باب: فضل الوضوء، رقم ٥٣٤.

(٣) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في كتاب الصلاة، باب: ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم ٤٧٧.

ـ عز وجل ـ في خلق الخلق، وكمال رحمته بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فهي إذن تستلزم شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ.

حمد الله ـ تعالى ـ على كل الأحوال:

والحمد لله ـ تعالى ـ يكون على جميع الأحوال ـ كما سبق ـ بخلاف الشكر، وروي في حديث قدسي قال الله ـ تعالى: «ياملك الموت: قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟» قال: نعم، قال: «فماذا قال؟» قال: حمدك واسترجع. قال: «ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[1].

فالله ـ عز وجل ـ يُحمَد في كل حال، حتى عند نزول المصيبة ووقوع الضرر والسوء.

وبعض الناس يقول عند المصيبة: (الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه)، وهذه الجملة يعتريها الخطأ والنقص من جهتين:

الأولى: أن هذا الوصف لا يختص به الخالق تعالى؛ إذ هناك مِن الخلق مَن يُحمد على المكروه منه؛ فالابن العاقل اللبيب إذا أدبه أبوه بما يكره ويؤلم يحمد أباه على ذلك، وكذلك المتربي العاقل مع أستاذه.

الثاني: أن إضافة المكروه إلى الله ـ تعالى ـ بالتصريح ليس هو الأكمل أدباً، بل الذي ينبغي أن يقال: الحمد لله على كل حال. وقد ورد ذلك في السنة؛ فعن عائشة

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٣٢/ ٥٠٠ ح ١٩٧٢٥؛ والترمذي، رقم ١٠٢٠، وقال: حديث حسن غريب؛ وابن حبان في صحيحه، ٧/ ٢١٠ وغيرهم، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ وقال الألباني ـ رحمه الله: «فالحديث بمجموع طرقه حسن على أقل الأحوال»، السلسلة الصحيحة، ١٤٠٨، وضعفه محقق المسند لضعف رواة وإرسال وهو الصواب ٣٢/ ٥٠١ـ٥٠٢.

ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان ﷺ إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال»[1].

واسم الله ـ تعالى: دال على الألوهة، وهي: العبادة، فالله هو المألوه المعبود الحق محبةً وتعظيماً، وسبق تفصيل معناه في البسملة[2]، وإن كان هذا هو محله الأرجح، ولكن أُلحق بالبسملة لكونها آية مستقلة من القرآن كله، وأول ورود لها في الفاتحة، أو على أنها آية منها على قول مرجوح.

ففي هذه الجملة إثبات استحقاق الله لجميع أوجه الحمد وأنواعه، ولتعليل ذلك ذكر الله ـ تعالى ـ بعض النعوت وهي:

السبب الأول: أنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والتربية هي: تبليغ الشيء إلى كماله تدريجاً، وقيل في معنى الربوبية هنا: هي موالاة خيره عليهم، وإسداء نعمه التي لا تحصى، وقيل: الربوبية هي بمعناها العام وهو: الخلق والملك والتصرف، ورجح بعضهم الأول؛ لئلا يتكرر ذكر الملك مع قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3].

---

(١) رواه ابن ماجه، في كتاب الأدب، باب: فضل الحامدين، رقم ٣٨٠٣؛ والحاكم في المستدرك ح ١٨٤٠، وله شواهد ذكرها الألباني ـ رحمه الله ـ في السلسلة الصحيحة، برقم ٢٦٥.
فائدة متممة لما سبق: من أسلوب التلميح لا التصريح في نسبة تقدير السوء إلى الله ـ تعالى ـ مقدر كل شيء؛ قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وقول الخليل ﷺ فيما أخبر الله عنه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وقول الخضر: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال عن إصلاح الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾، وقال عن كل فعله السابق: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].
(٢) انظر: صفحة ١٧ـ١٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١/ ١٦٦.

وربوبية الله لخلقه على نوعين:

الأولى: ربوبية عامة لجميع الخلق: تعني الخلق والرزق وإسداء النعم الدنيوية الظاهرة والباطنة.

والثانية: ربوبية خاصة للمؤمنين، معناها: التربية والتوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر، وتجد أدعية الأنبياء وأتباعهم مفتتحة بوصف الله بالربوبية قال ـ تعالى ـ عن أبينا آدم وزوجه ـ عليهما السلام: ﴿**قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [**الأعراف**: ٢٣]. وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿**وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ**﴾ [**المؤمنون**: ١١٨][(١)].

و ﴿**الْعَالَمِينَ**﴾: جمع عالَم، وهو جنس من أجناس الموجودات، والعوالم كثيرة، منها على وجه الإجمال: عالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الإنس، وعالم النبات، وعالم البحار.

فالعالمون إذن: كل من سوى الله تعالى، أو كل المخلوقين.

ومما يدل على عموم العالمين، جواب موسى لما ﴿**قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**﴾ [**الشعراء**: ٢٣ ـ ٢٤].

وقد علل بعض العلماء تسمية هذا النوع من الخلق بأنه عالَم؛ لأنه عَلَمٌ على خالقه سبحانه وتعالى[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ص ٣٩.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ١ / ٦٦، طبعة المغرب، ونقله عن الزجاج، وعزاه القرطبي في الجامع لأحكام القرآن للخليل، ١ / ١٣٩.

وسبب القول باستغراق العالمين لجميع الخلق؛ لأن كل الخلق يربّيهم الله تعالى، فلا يخرج منهم أحد عن هذا الوصف[1].

وكل مربوب فهو ضعيف إلى ربه، محتاج إليه غاية الحاجة، لا يستغني عن ربه طرفة عين، وكل الخلق مربوبون له سبحانه؛ فكيف يكون أحدٌ أحق بالحمد منه؟!

(١) وقد ترد كلمة: ﴿الْعَالَمِينَ﴾ في القرآن والمراد بها بعض الخلق لا كله بحسب السياق: كقوله-تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧ ، [التكوير: ٢٧ فهم الثقلان؛ لأنهم المكلفون بالعمل بالقرآن وقوله عن بني إسرائيل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧-١٢٢ ، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ على الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦ ؛ أي: في زمانهم، أو إلى ما قبل أمة محمد ﷺ وقد يراد بالعالمين الإنس؛ كقول لوط ﷺ لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥ .

الآية الثانية: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

ذكر الله ـ سبحانه ـ هنا: السبب الثاني والثالث لاستحقاقه الحمد كله، فنعمة الله بربوبيته لخلقه وإفضاله عليهم جارية على وجه الرحمة والرفق واللين واللطف، لا على وجه الشدة والأذى والحرج، ومن ذلك الأحكام الشرعية؛ فالحرج فيها مرفوع، وهي مبنية على اليسر.

وسبق ذكر معنى الاسمين الجليلين، فالرحمن: يدل على وصف ذاته تعالى[1]، والرحيم: يدل على الرحمة المتعلقة بفعله سبحانه[2].

وقد وسعت رحمته ـ سبحانه ـ كل شيء، قال ـ تعالى ـ عن حملة العرش: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، مع كمال قوته وقهره، وكمال غناه وعزته سبحانه وتعالى.

والصفات الماضية في هذه السورة هي: الربوبية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والرحمة الذاتية والفعلية في قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ وفيها ترغيب للعبد، ثم أتبعها الله ـ تعالى ـ بالترهيب من الطغيان والتخويف من التجاوز بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

(١) انظر صفحة ١٨ - ١٩.

(٢) انظر صفحة ١٩.

الآيـة الثـالثـة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[1]

وفيها ذكر السبب الرابع لاستحقاق الله الحمد كله: أنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وأصل كلمة الملك تعود إلى معنى: الشد والضبط والربط[2]، فهو يومٌ منضبط بحكم الله وحده لا يتنازع ضبطه أحد.

والدّين في هذا السياق معناه: الجزاء بالعدل والقسط. فهو مجازاة المكلفين من جنس كسبهم؛ يُدان الناس بأعمالهم بالقسط والعدل؛ فيثاب المطيع المحسن، ويعاقب العاصي المسيء، ويقتص للمظلوم من الظالم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]، وقال: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

---

(١) في هذه الآية قراءتان سبعيتان: قرأ عاصم والكسائي: ﴿مَالِكِ﴾ وقرأ الباقون: ﴿مَلِكِ﴾، [انظر: كتاب السبعة، لابن مجاهد، ص ١٠٤].

ومعناهما متقارب، ويمكن حمل قراءة: ﴿مَلِكِ﴾ على أنها صفة للذات، وقراءة ﴿مَالِكِ﴾ على أنها صفة للفعل، [انظر: فتح القدير، للشوكاني، ١ / ٢٢]، فيكون مشابهاً لمعنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من حيث الذات والفعل.

والقراءتان دالتان على كمال التصرف، ولما أضيفا إلى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ فقد استويا في إفادة كمال تصرفه ـ تعالى ـ في اليوم الآخر. انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور، ١ / ١٧٥.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، لابن عطية، ١ / ٦٨.

بل إن كل الدواب وحتى الطيور ـ مهما صغرت ـ يبعثها الله عز وجل؛ ليعدل بينها، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لتُؤدَّن الحقوقُ إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء»[١].

ولو كان الخلق بلا بعثٍ ولا حسابٍ ولا جزاء لكان هذا أمراً مذموماً غير محمود؛ لأنه عبث، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

فلله ـ تعالى ـ الحمد على تقديره البعث والجزاء للخلق كما قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]، وقال: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، و يقال بعد الفصل بين الخلائق: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، فالقائل غير مخصوص؛ فيعم الخلق كله[٢].

وقد بيّن الله ـ تعالى ـ يوم الدين بما يحدث فيه: قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]، ففي يوم القيامة ليس لأي شخص مهما كان قربه من الله ـ تعالى ـ أي نوع من أنواع التصرف والملك، بل كل الأمر والحكم لله، قال النبي ﷺ لابنته ـ رضي الله عنها ـ: «يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئتِ، لا أغني

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب البر والصلة، باب: تحريم الظلم، حديث ٢٥٨٢، وذكر محمد فؤاد عبد الباقي ـ رحمه الله ـ: أن هذا القصاص ليس قصاص تكليف، بل هو من باب المقابلة والعدل، وحمله بعضهم على أنه تكليف على نحو معين. والله أعلم.

(٢) انظر: بدائع التفسير، ٤ / ٧٧.

عنكِ من الله شيئاً»[1].

وإثبات ملك الله المطلق للزمان ـ وهو اليوم يشمل كل ما يكون فيه؛ لأن مُلك الزمان أصعب شيء؛ فمن ملك الزمان فملكه لما فيه من باب أولى[2].

وهذا داعٍ قوي ليتعلّق المكلف بخالقه فيخلص له العبادة؛ حتى ينجيه الله، ولا يتعلق بأحدٍ سواه، سواء أكانوا من أولياء الله الذين يشفعون كالأنبياء والملائكة والصالحين، أم كان بالأعمال الصالحة التي تشفع كقراءة القرآن مع العمل به وكذا الصيام؛ لأنهم لا يملكون الشفاعة، بل الذي يملكها هو الله، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، وقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، ولما سأل أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ النبيّ ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «. . . أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» أو «نَفْسِه»[3].

وفي ذكر اليوم الآخر ترهيب من الله لعباده، بعد الترغيب الماضي؛ ليكون العبد بين الرجاء والخوف، وليأخذ حذره ويحتاط ويستعد؛ لئلا تستزله نزواته وشهواته فيغفل عن هذا اليوم الذي وقوعه يقين، وفيه تجزى كل نفس بما كسبت.

وقد يقع للمتأمل في هذه الآية تساؤل: ما الحكمة من حصر الملك بيوم القيامة؛ مع أنه ـ سبحانه ـ ملك الدنيا والآخرة؛ كما قال ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ [النجم: ٢٤ ـ ٢٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ [الليل: ١٣]؟

---

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم ٢٧٥٣.

(٢) انظر: حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوي، ١ / ٣٧.

(٣) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث، حديث رقم ٩٩.

وللجواب عن هذا التساؤل أوجه؛ منها:

❶ أنه سبق ذكر الربوبية العامة المطلقة في زمنها فتشمل الدنيا والآخرة؛ وذلك في قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، فهو المالك لهم المتصرف فيهم مطلقاً في جميع الأزمان.

❷ ثم إن الدنيا لا يجتمع فيها الخلق دفعة واحدة في زمن واحد، بل الأمم يرث بعضها بعضاً.

❸ والدنيا أيضاً لا يجتمع فيها الخلق على الدوام، فاجتماعها منتهٍ زائل، أما الآخرة فهي مُدَد غير منتهية؛ إذ هو اليوم الآخر الذي لا يوم بعده.

❹ ثم في اليوم الآخر يظهر الملك الخاص جلياً باجتماع الخلق وإجماعهم، وفيه يقول الله ـ تعالى ـ للخلق: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فلا يجيب أحد، ثم يجيب ـ تعالى ـ نفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] [(١)].

وفي الآيات الثلاث الأولى من سورة الفاتحة أركان العبادة، وهي: المحبة في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ، والرجاء في قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ، والخوف في قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [(٢)].

وفي هذه الآيات أيضاً: يعلمنا الله ـ عز وجل ـ: كيف نحمده، وكيف نثني عليه، وكيف نمجّده، فالحمد ذكر المحمود بصفات الكمال مع المحبة والرضا بالمحمود، فإذا كرّر الحمد صار ثناءً، فإذا ذكرت صفات العظمة والجلال صار تمجيداً [(٣)].

---

(١) جاء معنى ذلك في حديث الصور الطويل، عن أبي هريرة رضي الله عنه. انظر الشاهد منه في: تفسير ابن كثير عند هذه الآية، ٤/ ٧٥.

(٢) انظر: العبودية، ص ١٣٩.

(٣) انظر: حديث قسمت الصلاة القدسي في المقدمة ص ٩. وقال في ترتيب القاموس المحيط: مجّده: عظمه وأثنى عليه. مادة: م ج د، ٤/ ٢٠٤.

وإذا قرأ العبد في الصلاة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ يقول الله: حمدني عبدي. وإذا قرأ العبد: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ يقول الله له: أثنى علي عبدي. وإذا قرأ العبد: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾؛ يقول الله: مجّدني عبدي!! فهل نحن نستشعر حمدنا وثناءنا وتمجيدنا حين نقرأ في صلواتنا؟! ثم هل نحن نستشعر ونستحضر جواب الله ـ سبحانه ـ لنا؟![1].

---

(١) (٤) استحسن بعض العلماء الوقوف على الجمل الماضية؛ استحضاراً لجواب الله لعبده في هذا الحديث. انظر: بدائع التفسير، ١/ ١١١ ـ ١١٢، والوقوف على رؤوس الآي، جاء في حديث رواه أبو داود ٤٠٠١، والترمذي ٢٩٢٣، والحاكم ٢٩٠٩، والبيهقي ٢٢١٢، والدارقطني ١١٥٧ و ١١٧٥ عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: «كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف»، وقال الترمذي: ليس إسناده بمتصل، وأعلّه الطحاوي بالانقطاع، وذهب صاحب البدر المنير إلى تصحيحه ٣/ ٥٥٧، وكذا صححه لغيره محقق سنن الدارقطني ـ طبعت بإشراف التركي ـ ٢/ ٧٦.
والأمر بترتيل القرآن يعني: الترسل والتمهل وبيان الحروف، وهذا يقوي معنى الحديث، فيزداد هنا تأكيداً. والله أعلم.

الآية الرابعة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]

بعد الثناء بأحسن الصفات على الله تعالى، أعقبها العبد ـ كما علمه الله ـ بأحسن ما ينبغي له تجاه ربه وإلهه الموصوف بهذه الصفات الحسنى، والتي لا يشابهه فيها أحد، فتوجه له بالعبادة وطلب منه الإعانة عليها، وهذا توسل بالعبودية والتوحيد بعد أن توسل بالأسماء الحسنى والصفات العلى لله الحميد، وهذان التوسلان لا يكاد يُرد معهما الدعاء[2].

وهذه الآية نصفان:

النصف الأول: حق الله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

والنصف الثاني: حق العبد: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

(١) فائدة: هذه الآية: وردت على صيغة المخاطب بعد أن كان أول السورة بصيغة الغائب، ويسمى هذا الأسلوب: الالتفات؛ ومن فوائده: تنويع الأساليب؛ لإظهار كمال الفصاحة والبيان، وكأن العبد لما حمد ربه وأثنى عليه ومجّده قربه الله إليه وأدناه، فصار الأسلوب من الغيبة إلى الحضور. والله أعلم.

(٢) انظر: بدائع التفسير، ١/ ٢٠٦ـ٢٠٩.

ويـدل علـى ذلك: ما رواه ﷺ عـن ربـه ـ تعالى ـ في الحديث القدسي: «هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل»[1]، فالثناء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والدعاء: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

النصف الأول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾:

معنى العبادة لغة وشرعاً:

أصل معنى العبادة عند العرب: الذلة والطاعة، فقولك: طريق معبّد؛ أي: مذلّل أزيل منه ما يعيق المارة[2]. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقريب من معناه: الخضوع.

على أن الطرق في تعبيدها على درجات؛ فكلما ازداد الطريق تعبيداً ازداد الناس فيه رغبة، وهكذا العبد عند خالقه ـ سبحانه تعالى ـ كلما ازداد لله تذللاً وتعبداً بالمشروع؛ زادت محبة الله له، وزاده تشريفاً بقدر ذلك.

والعبادة في الشرع: اسمٌ جامعٌ لكلّ ما يحبه الله ويرضاه؛ من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[3]. والعمل الذي يحبه الله يجتمع فيه شرطان: الإخلاص لله، والمتابعة لسنة رسول الله ﷺ.

وهذا تعريفٌ شاملٌ تدخل فيه الأعمال القلبية الباطنة؛ مثل:

ما أمر الله به من مثل: المحبة، والبغض، والتوكل، والخوف، والرجاء، وما نهى عنه من مثل: الكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق، والخيلاء،

---

(١) سبق تخريجه في المقدمة، ص ٩، وص ٢٢.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن ص ٥٤٢ ع ب د، والغريبين في القرآن والحديث لأبي عبيد الهروي ٤/ ١٢١٧.

(٣) الفتاوى الكبرى، ٥/ ١٥٥.

والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم . . .

ويدخل في مفهوم العبادة الشامل أعمالُ الجوارح الظاهرة؛ مثل:

أعمال اللسان المأمور بها: كالنطق بالشهادتين، والاستغفار، وتلاوة القرآن، وأذكار الصلوات، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وترك المنهي عنه من القول؛ وهو كل ما يبغضه الله: كالقول على الله بلا علم، والتكلم بالشرك، والاستهزاء بالدين، والحلف بغير الله، وشهادة الزور، والقذف، واللعن والسب، والكذب، وما لا خير فيه.

والذوق منه المشروع: كذوق الطعام الذي به بقاء حياته هو مضطر إليه، وتناول الدواء الذي يخاف بتركه الهلاك، وأكل ما يعين على الطاعة من المباح، والأكل مع الضيف، ومنه ما يحرم: كذوق الخمر، والسم القاتل، ويجتنب ذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة.

وأعمال الأُذُن المأمور بها من مثل: الاستماع والإنصات لما أوجبه الله ورسوله ﷺ من شرائع الإسلام والإيمان، واستماع جهر الإمام بالقراءة في الصلاة، واستماع خطبة الجمعة. وترك استماع الكفر والاستهزاء بدين الله - إلا إن كان في استماعه مصلحة راجحة كالرد عليه - أو الشهادة على قائله، وترك التّجسّس، وترك استماع الأغاني والمعازف.

وأعمال العين: كالنظر إلى آيات الله في مخلوقاته، والنظر في المصحف، وكتب العلم النافع، أو النظر لتمييز الحلال من الحرام فيما يأكل، أو يستمتع به، ويتجنب النظر المنهي عنه: كالنظر إلى العورات التي وراء الثياب، أو الأبواب، أو النظر للنساء الأجنبيات.

والشَّمُّ: منه المشروع كقصد التمييز بين الحرام والحلال. ومنه ما ينهى عنه: كشَمّ الطيب حال الإحرام، وشَمّ المغصوب، والمسروق، وشَمّ طيب النساء الأجنبيات؛ ليفتتن بما وراءه.

واللمس: منه المشروع؛ كمصافحة المسلم لأخيه، وكلمس الزوجة؛ لإعفاف نفسه وإعفافها. ومنه المنهي عنه: كلمس النساء الأجنبيات، ولمس فخذ الغير على القول بأنه عورة.

وأعمال اليد والرجل: منه المشروع: كالاكتساب للنفقة على النفس والعيال، ولقضاء الدين، ومباشرة الوضوء والتيمم، وأداء الحج، وأفعاله، وكتابة العلم النافع، والمشي إلى الجمع والجماعات، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعي إليه، وإلى مجالس العلم، ولبر الوالدين، وصلة الرحم. ومنه المنهي عنه: كقتل النفس المعصومة، ونهب المال المغصوب، وضرب من لا يحل ضربه، وكتابة الباطل، والزور، والظلم، والجور، والقذف، والتّغزُّل بالنساء الأجنبيات، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في الدين أو الدنيا، وما فيه معصية الله[1].

فيا ويح من يكذب على ربه وهو يناجيه فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وإنما هو يقصد غيره بالعبادة، يتعهد لربه ويناجيه لا أعبد إلا أنت وهو خائن لعهده! إلا أن يقصد بكلامه الدعاء والطلب للتوفيق والإعانة[2]، [3].

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ١ / ٢١٠ـ ٢٢٣، فقد ذكر أنواع العبادة وقسمها إلى الأحكام الخمسة، وأتيت ببعضها اختصاراً، وتصرفاً، فارجع إليه فإنه نفيس.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ١٤ / ٨.

(٣) وهذا تفسير ضعيف؛ لأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لله؛ فهي ثناء، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ للعبد؛ فهي دعاء وسؤال، كما في حديث سورة الصلاة. وسبق الحديث في المقدمة صفحه ٩، وصفحة ٢٢.

فالعبادة كلها يجب أن تكون لله تعالى، والاستعانة نوع من أنواع العبادة؛ فلا تكون الاستعانة إلا بالله ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله، والاستعانة تتضمن اعتراف العبد بالعجز والضعف لمن له تمام القدرة والقوة ـ سبحانه وتعالى ـ فكلّ مؤمن موفق فهو معترف بفضل الله عليه؛ حيث وفّقه لعبادته، وأعانه عليها. قال الله ـ تعالى ـ عن المؤمنين لما دخلوا الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال عن طائفة: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

العبادة الشرعية دليل المحبة الصادقة:

والقيام بعبادة الله دليل على محبة العابد الصادقة لله عز وجل، ولا تصح أيّ عبادة إلا بموافقة هدْي محمد ﷺ؛ ولذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن ادّعى محبة الله وأظهر معصيته فدعواه كاذبة، أو ناقصة على حسب معصيته، كما قال الشاعر:

تعصي الإلهَ وأنت تُظْهِر حُبّه
هذا محالٌ في القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعتَه
إن المحبَّ لمن يُحبُّ مطيعُ
في كلِّ يوم يبتديكَ بنعمةٍ
منه وأنتَ لشكر ذاكَ مضيعُ[١]

(١) القائل هو: محمود الوراق، وينسب للشافعي، انظر: الآداب الشرعية، ١ / ١٧٩.

فكل متبع لشريعة الله، مؤتمرٍ بأمر الله وأمر رسوله ﷺ، لا متبع لهوى؛ فهو المحب الحق، وأما غيره فليس كذلك.

واجتمع الحمد والشكر في هذه السورة: فبعد الحمد والثناء والتمجيد بالقلب واللسان، جاء الشكر بالجوارح واضحاً وذلك بالعبادة الشرعية التي يقوم بها العبد.

العبادة نوعان: عبادة الاختيار، وعبادة الاضطرار:

العبادة التي يقولها العبد ويثني على ربه بها هي عبادة اختيار ومشيئة من العبد، وهي العبادة التي يحصل عليها الثواب، فهو عبد (متعبِّد)، وهذه العبودية متعلقة بالألوهية.

ومن عبادة الاختيار هذه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢، والإسراء: ٦٥].

وهناك عبادة اضطرار لا تنفك عن المخلوق بحال، حتى الكافر موصوف بها، ومعناها تمام ملك الله للمخلوق وتصرفه فيه[1]، فهو عبد (مُعَبَّد)، وهذه العبودية متعلقة بالربوبية.

ومن عبادة الاضطرار قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فالعبودية والسجود والقنوت هنا معناه: الذل والخضوع القهري[2].

(١) انظر: بدائع التفسير، ١ / ١٣٠.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ١٤ / ٢٩ـ٣٠.

وقفة مع وظيفة العبادة:

العبادة أشرف منازل المكلفين من الجن والإنس ووظائفهم على الإطلاق، بل لجميع الخلق من الملائكة وسائر الخلق؛ يدل على ذلك أن الله ـ تعالى ـ يصف أفضل خلقه محمداً ﷺ في مواطن التعظيم والتشريف بالعبودية، قال ـ تعالى ـ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ولم يقل: خليلنا، أو نبينا، أو خاتم رسلنا، ونحو ذلك. وقال في الملائكة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ – ٢٧].

والسؤال المهم هنا: لماذا كانت العبادة أشرف المنازل؟

والجواب: أن الحكمة من خلق الإنس والجن هي تكليفهم بالعبادة وأمرهم بها، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم[1]، فالله ـ تعالى ـ لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عذيه كل الأرباح، كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧] وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤][2]، فإذا قام المكلف بما خلق من أجله فقد شرف وكمل. ويقابل العبادة: الاستكبار والشرك، فمن اتصف بشيء من ذلك فقد عرض نفسه للعذاب والسخط، وفاته الشرف والكمال؛ لأنه لم يقم بالوظيفة التي لأجلها خلق.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٧/ ٤٢٥.

(٢) انظر: بدائع التفسير، ١/ ٤٦٩.

ولتقريب هذا المعنى إليك أمثلة دنيوية:

إنسان اشترى سيارة ثمينة لكنه لا يستخدمها، وجعلها للزينة، واعتمد في تنقّله على قدميه، فأي قيمة لهذه السيارة عند هذا الرجل؟!

أو شخص اشترى قلماً ثميناً لكنه لا يكتب..؛ فأي قيمة لهذا القلم عند صاحبه إذا أراد الكتابة؟!

لقد خلق الله الإنس والجن لوظيفة واجبة لا تجوز معها البطالة، وهذه الوظيفة (وهي العبادة) جُعلت الحكمة الأساسية من الخلق، ولكن الكثير من الخلق يتركها ليؤدي غيرها؛ طلباً لشرف ومنزلة ومكانة موهومة! كيف يدرك الشرف ويحصّله؟ أيبحث عن الشرف وقد تركه، ويهرب من الذل وقد أدركه؟!

إن الشرف الحقيقي في التوفيق للوظيفة الواجبة، وهي التي يثني العبد بها على ربه في كل ركعة من صلواته، وربه رحيم به فهو الذي علمه ذلك الثناء؛ فاللهم يا من مدحه زين، وذمه شين[1]: وفقنا لتحصيل مدحك، وجنبنا ما يوصلنا لذمك، يا حي يا قيوم!

---

(١) ورد في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]: أن الأقرع بن حابس ـ رضي الله عنه ـ قال: ألا إن حمدي زين، وإن ذمي شين. فقال ﷺ: «ذاك الله ـ عز وجل ـ»، رواه أحمد، ٣ / ٤٨٨، وهو منقطع، وله شاهد عند الترمذي عن البراء في كتاب التفسير، سورة الحجرات، برقم ٣٢٦٧، ص ٧٤٣؛ والنسائي في الكبرى، كتاب التفسير، ٦ / ٤٦٦، برقم ١١٥١٥؛ وابن جرير، ١١ / ٣٨١. انظر: تحقيق مسند الإمام أحمد، ٢٥ / ٣٦٩ـ٣٧٠. وإن كان الحديث فيه لين، فهو صحيح المعنى، والله أعلم.

النصف الثاني: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

معنى الاستعانة بين الخلق، ومعناها بين الخلق والخالق:

الاستعانة بين الخلق معناها: طلب التسهيل والمعونة في فعل يشق ويعسر على الشخص وحده، أما الاستعانة هنا: فهي بين المخلوق وخالقه، فليست قدرة العبد قدرة منفصلة مستقلة توصله إلى ما يريد بدون معونة الله كلا، بل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، ولا تنفذ مشيئة العبد أبداً إلا بموافقة مشيئة الله تعالى، فمشيئة الله هي الحاكمة المحيطة، كما قال الله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣٠]، وقال: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]. ولا تعني موافقة مشيئة الله لمشيئة العبد أن هذا العمل يرضاه الله ـ تعالى ـ إلا في المشروع. يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧][1].

والاستعانة المشروعة هنا تشمل: كل ما يريد العبد فعله من أمور مشروعة في الدين والدنيا؛ لسعة مفهوم العبادة في الشرع، كما تقدم. قال ﷺ لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «وإذا استعنت فاستعن بالله»[2]، وأوصى ﷺ حِبّه فقال:

---

(١) ينبغي استحضار أن مشيئة الله ـ تعالى ـ [التي تحيط بفعل العبد] من أمور الغيب التي لا تعرف إلا بعد وقوع فعل العبد، فلا يصح الاحتجاج بها على المعصية، لأن كل الأفعال تنسب إلى العبد وباختياره، وهو يقوم بأفعاله برضاه. كما ينبغي أن تعرف أن المشيئة لله تعالى على نوعين: مشيئة كونية: شاملة لكل ما يقع في الكون من خير وشر، وهي ما سبق توضيحه. ومشيئة شرعية: وهي ما أراده الله من المكلفين عن طريق المرسلين عليهم الصلاة والسلام، والعبد مأمور بتحقيقها على قدر استطاعته.

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧؛ والترمذي في كتاب صفة القيامة، باب: حديث حنظلة، ص ٥٧٢، رقم ٢٥١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح؛ والحاكم في المستدرك، في كتاب معرفة الصحابة، ٣/ ٥٤٢؛ صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ٢/ ١٣١٨.

«يا معاذ: والله إني لأحبك! أوصيك يا معاذ: لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»(١).

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنفع الدعاء:

وقد اشتملت هذه الجملة على أنفع الدعاء وأجمعه: «فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله، وتيسير أسبابه»(٢).

فيا له من دعاء جامع للأدعية! وكل دعاء مشروع فهو راجع إليه.

وبالنظر للآية كاملة هنا فوائد منها:

- دلالة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على التوحيد والتبرؤ من الكبر:

ففي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تخلٍّ عن الشرك، وتحلٍّ بالتوحيد، وتبرؤ من الشرك والرياء؛ حيث حصر الداعي عبادته لله وحده دون غيره، ودليل ذلك تقديم ضمير الخطاب ﴿إِيَّاكَ﴾.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تخلٍّ عن استغناء العبد، وتبرؤ من الحول والقوة والكِبْر، واعترافٌ ضمني بالعجز والضعف، واستحضار واستشعار لقدرة الخالق وحده؛ حيث حصر استعانته بالله ـ تعالى ـ دون غيره. فلا يستطيع أحد أن يعبد الله إلا بالله فالبداية من الله والنهاية إلى الله، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) رواه أحمد في مسنده ٥/ ٢٤٤؛ وأبو داود، في كتاب الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم ١٥٢٢؛ وبنحوه النسائي في كتاب الصلاة، باب: نوع آخر من الدعاء، رقم ١٣٠٤؛ والحاكم، ١/ ٢٧٣؛ وابن حبان في صحيحه ح ٢٠٢١، وغيرهم عن معاذ رضي الله عنه؛ وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ٢/ ١٣٢٠.

(٢) بدائع التفسير، ١/ ١٨٠.

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء»[1].

- دلالة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على توحيد الألوهية والربوبية:

فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ حَوَتْ معنى شهادة التوحيد نفياً وإثباتاً، وهي متعلقة بتوحيد الألوهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلقة بتوحيد الربوبية[2] الدال على كمال ملك الله وكمال تصرفه، وعَجْز جميع خلقه عن فعل ما يريدون إذا لم يُعنهم الله بتقديره، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وتضمنت التعبد باسم الرب واسم الإله، فهو يعبد بألوهيته، ويستعان بربوبيته، ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته، فكان أول السورة ذكر اسمه: الله والرب والرحمن تطابقاً لأجل الطالب من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المنفرد بإعطاء ذلك كله، لا يعين على عبادته سواه، ولا يهدي سواه[3].

وأفادت ﴿إِيَّاكَ﴾ في الموضعين الحصر؛ لتقدمها؛ فلا يجوز العطف عليها بشيء آخر.

أما لو قيل: نعبدك، لجاز العطف عليها، وحينئذٍ لا تكون دالة على التوحيد.

ويقرب معنى هذه الآية من قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، فالمتوكل على الله مستعين بالله[4].

---

(١) انظر: المرجع السابق، ١ / ١٥٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، ١ / ١١٠، ١٧٧.

(٣) انظر: الصلاة وحكم تاركها ص ١٧١، ١٧٦.

(٤) الحقيقة أن التوكل أوسع من الاستعانة، وجاء في رواية من حديث «قسمت الصلاة» حمل: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على التفويض، في قوله ـ عز وجل ـ للعبد: «فوضّ إلي عبدي».
«والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضا؛ لا يتصور وجوده بدونها»، مدارج السالكين، ١/ ١٣٦.

- وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ رد على الجبرية والقدرية:

ففي قوله: ﴿نَعْبُدُ﴾ رد على الجبرية؛ الذين يقولون: إن العبد ليس له إرادة ولا مشيئة ولا فعل، بل هو مثل الريشة في مهبّ الريح.

ووجه الرد عليهم: أن فاعل العبادة في الآية هو العبد؛ فأضيف فعل العبادة إليه، لأنه هو الذي كسبها باختياره.

وفي قوله: ﴿نَسْتَعِينُ﴾ رد على القدرية؛ الذين يقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه بدون إرادة الله. تعالى الله!

ووجه الرد عليهم أن استعانة العبد في الآية تدل على أن مشيئة العبد غير نافذة إلا بإذن الله تعالى، فلولا معونة الله - تعالى - لعبده لما تمكن من العبادة، فالفعل من العبد، والإقدار والإعانة من الله[1].

- والناس في العبادة والاستعانة أربعة أصناف:

الأول: العبد الحق، وهو من يجمع بين العبادة والاستعانة بتوازن بحسب الحال؛ كما جُمِعا في الآية، فلا يهمل أحدهما على حساب الآخر.

الثاني: من تغلب عليه العبادة، ولكنه يُقصِّر في الاستعانة والتوكل، فيصير عاجزاً أو مفرطاً، فيجزع كثيراً لما أصابه، ويحزن كثيراً لما فاته، ويجهل كثيراً من أحكام وحِكَم القضاء والقدر، أو يتعلق بالمخلوقين ويستعين بهم، ويركن إلى قوتهم ومددهم.

الثالث: من يغلب عليه الاستعانة والتوكل، ولكنه يُقصِّر في العبادة، ويفرط في مراعاة الشرع والأمر والنهي والألوهية، ويراعي ويستحضر القضاء والقدر والربوبية، ولا يستحضر الشرع والأمر والنهي والألوهية.

---

(١) بدائع التفسير، ١/ ١٠٧.

الرابع: من يُقصِّر فيهما معاً؛ ففي أمر الدين: يعبد غير الله، ويستعين بغيره، وفي أمر الدنيا: يطلب ما يريد من الدنيا قاصداً إياها، يطلبها متعلقاً بالأسباب دون مسببها[1].

- ما الحكمة من تقديم العبادة على الاستعانة في هذه الآية؟

تعددت الأقوال في ذلك[2]:

منها: أن الفاتحة نصفان: نصف لله، ونصف للعبد، كما في الحديث القدسي الماضي؛ فقدمت العبادة لتناسب ما لله في الجمل الأولى من السورة وهي أوصاف لله تعالى، وأُخِّرت الاستعانة لتناسب ما للعبد في الجمل الأخيرة التي هي سؤال من العبد.

وقيل: لأن العبادة غاية، والاستعانة وسيلة إليها، والغاية أولى من الوسيلة.

وقيل: لأن العبادة متعلقة بالألوهية، والاستعانة متعلقة بالربوبية؛ والألوهية أسبق في السورة في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

وقيل: لأن العبادة تتضمن الاستعانة؛ فهي أعم، ولا يلزم من الاستعانة عبادة؛ فقد يستعين صاحب الشهوة والفجور بالله على شهوته وفجوره، فقدم الفعل الذي لا يكون من العبد إلا عملاً صالحاً على ما يكون صالحاً حيناً، وسيئاً حيناً.

وقيل: لأن العبادة أنسب للجزاء ويوم الدين؛ وهذا ورد في الآية السابقة، والاستعانة أنسب لطلب الهداية؛ وقد وردت في الآية اللاحقة. والأول أوجهها.

(١) انظر: مجموع الفتاوى، ١٤ / ١٠ـ١٢.
(٢) انظر بعض هذه الأقوال في بدائع التفسير، ١ / ١٧٧ـ١٧٨.
(٣) هذا على القول الصحيح بأن البسملة ليست آية من آيات الفاتحة، كما تقدم في ص ٢١ـ٢٢.

- ما الذي يقع من المكلف أولاً: العبادة أم الاستعانة؟

هذا سؤال يحلّ شيئاً من حكمة تقديم العبادة على الاستعانة في الآية لو كانت العبادة تقع قبل الاستعانة، والصحيح أنه لا يسبق أحدهما الآخر في الوقوع، بل هما متلازمان، لا يمكن وقوع أحدهما قبل الآخر مطلقاً؛ فالعبادة لا تقع إلا بإعانة الله، والاستعانة هي عبادة [أيضاً] لا يجوز طلبها من غير الله إذا كانت لا يقدر عليها إلا الله؛ فهذه الآية تتحدث عن العبادة عموماً، وجاء التمثيل على نوع مهم من العبادة وهو الاستعانة؛ ليفيد الاهتمام.

والله تعالى يوفق للعبادة من أناب إليه واستجاب له قال ـ تعالى ـ: ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٧ - ٢٨]، وذكر الصنفين فقال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل: ٥ - ١٠].

الآية الخامسة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

هذا دعاء صريح بأهم ما يحتاجه العبد، بل هو مضطر إليه غاية الاضطرار، يرفع العبد حاجته إلى ربه معترفاً بعجزه وأنه، ﴿كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢ [(١)]]، قاصداً بذلك دفع الكبر والعناد عند سماع الحق[(٢)]، ومعترفاً بأن المدعو وحده ـ سبحانه ـ هو المعين والموفق والميسر، ويستحضر في دعائه الرغبة بالتحلي بالرشد والهداية، وينبغي أن يكون حاله في هذا الدعاء حال المتضرع كما أمره الله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

(١) الظلوم: هو المبالغة في تعدّي حدود الله مع العلم بها، وضده العدل وتحقيق القوة العملية للعلم.
والجهول: هو ضعيف العلم جداً بما أمره الله، فيحتاج إلى دفع الجهل عنه بتعلم شرائع الدين التي هو مكلف بها.
وهاتان الصفتان هما الأصل في الإنسان أن يظلم نفسه فيقدم هواها ولو كان يضره ذلك، أو يعمل أعمالاً يظنها حسنة بجهله.

(٢) قال ﷺ في تعريف الكبر: «الكبر: بطر الحق، وغمط الناس» رواه مسلم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، ص ٥٤، رقم ٢٦٥.

معنى الهداية:

الهداية في اللغة: ضد الضلالة، فهي بيان ورشاد بتلطف ورفق.

وفي الشرع تطلق على نوعين مشهورين:

النوع الأول: الدلالة والإرشاد، وهي تقع من الخالق والخلق، فالله ـ تعالى ـ يهدي؛ أي: يدل ويرشد. قال ـ تعالى ـ: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾ [**فصلت**: ١٧](1).

وتقع من الرسل والصالحين، قال ـ تعالى ـ عن رسوله ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [**الشورى**: ٥٢]، وقال ﷺ لعلي ـ رضي الله عنه ـ: «لأن يُهدَى بك رجلٌ واحدٌ خيرٌ لك من حمر النعم»(2).

والقرآن (وهو الآيات الشرعية) يهدي ويبين ويوضح: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [**النحل**: ٨٩].

والنظر في الآفاق (الآيات الكونية)، وكذا النظر في الأنفس يهدي ويدل ويرشد: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ [**فصلت**: ٥٣].

بل تقع هذه الهداية من جماد: كالكتاب الورقي والمرئي، والشريط السمعي والبصري.

---

(١) انظر: الاستدلال لنوعي الهداية، في أضواء البيان، للشنقيطي، ٤ / ٣٩٩، سورة فصلت، آية ١٧.

(٢) رواه البخاري بلفظه عن سهل بن سعد رضي الله عنه، في كتاب الجهاد والسير، باب: دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة..، رقم ٢٩٤٢؛ ومسلم بنحوه في كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث ٦٢٢٣.

والمقصود بهداية الدلالة والإرشاد عامة: التعريف بالخير وتبيينه، سواء أفعل المدعو الخير أم ترك؛ فهذه الهداية شرط للنوع الثاني من الهداية لا موجبة لها، والشرط يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته، فإن وجدت هداية الدلالة والإرشاد ولم توجد هداية التوفيق والإلهام لم يحصل الاهتداء المستوجب للثواب.

النوع الثاني: هداية التوفيق والإلهام، وهي خاصة بالله - سبحانه وتعالى - وعليها يحمل قوله - تعالى - لنبيه ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وهذه الهداية المنفية عن الرسول ﷺ هي التي تستلزم الاهتداء والثواب ولا يتخلف عنها.

وليس للخلق في هداية التوفيق والإلهام نصيب قط، إنما عليهم ما على الرسل: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

والمقصود بهداية التوفيق والإلهام كتابة الإيمان في القلب، وقبول القلب له وعمله به، فالله - تعالى - هو الذي يشرح صدر المكلف للإيمان، وللعمل بشرائع الإسلام بفضله ورحمته، وهو الذي يضل عن الإيمان عدلاً منه وحكمة، ويضيق صدر المكلف فلا يستسيغ الشريعة، قال - تعالى -: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. ومن أسباب الضلالة: العلم بالحق أول مرة ثم الإعراض عنه: قال - تعالى -: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ومن أسباب الهداية: الإنابة إليه: قال - تعالى -: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

وتستطيع أن تقول: إن هداية التوفيق والإلهام خاصة بالله تعالى، سواء أكان ذلك في أمور الناس الشرعية أم الدنيوية، فهما على حدٍّ سواء.

ففي الأمور الشرعية: قد يدعو الداعي إلى أداء الزكاة، ويبين حسنها وبركتها وخيرها في الدنيا والآخرة بكلام واضح بيِّن؛ فيستجيب لهذا من أراد الله له الخير، ويعرض عن هذا الكلام آخرون.

وفي الأمور الدنيوية: تنصح قائد السيارة بأن يمشي على رِسْله وهَوْنه، وتبين له فوائد ذلك بأحسن كلام وأوضح بيان؛ ولكنه مع وضوح ما دعوته إليه لا يهتمّ بما تقول ولا يعمل به.

وقد يكون هناك عمل ناجح جداً؛ فتنصح من تحب نصحاً مخلصاً، وتفاجأ أحياناً بعدم رغبة من تكلم في هذا الأمر بتاتاً! فلا تستطيع أن تصرف قلبه إلى ما لم يرده الله منه؛ قضاءً وقدراً، فحدّك ونهاية إرادتك هداية الدلالة والإرشاد في أمر الدنيا والدين.

فالله - تعالى - هو مقلب القلوب ومصرفها كما يشاء فضلاً منه ورحمة، أو عدلاً منه وحكمة، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكان أكثر دعاء الرسول ﷺ: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»[1]، وكان أكثر أيمانه: «لا ومقلب القلوب»[2]، «لا ومصرف القلوب»[3].

---

(١) رواه أحمد، ٦/ ٩١، عن عائشة، و٣٠٢ و٣١٥ عن أم سلمة رضي الله عنها؛ والترمذي عن أم سلمة - رضي الله عنها - في كتاب الدعوات، باب: دعاء يا مقلب القلوب، رقم ٣٥٢٢، وقال: هذا حديث حسن؛ وعن النواس بن سمعان ٤/ ١٨٢ وإسناده على شرط الشيخين، قاله محقق المسند، ٢٩/ ١٧٨؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠٩١.

(٢) رواه البخاري عن ابن عمر - رضي الله عنهما - في كتاب التوحيد، باب: مقلب القلوب، رقم ٧٣٩١.

(٣) رواه النسائي ح ٣٧٦٢؛ وابن ماجه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - في كتاب الكفارات، باب: يمين رسول الله ﷺ التي كان يحلف بها، رقم ٢٠٩٢؛ والطبراني في الكبير ح ١٣١٦٦؛ وقال الألباني - رحمه الله -: «وهذا إسناد جيد» السلسلة الصحيحة، رقم ٢٠٩٠.

ما المقصود بالهداية في دعاء الفاتحة؟

الداعي - قارئ الفاتحة - يسأل الله نوعي الهداية - كما تقدم، وهما:

النوع الأول: هداية الدلالة والإرشاد، وهي: العلم النافع الموافق للحق، وهي القوة العلمية النظرية، ومن دقائق ذلك الهدايةُ في الأمور المختلف فيها؛ فقد ثبت أجر واحد لكل مجتهد في الوصول إلى الحق، ولكن من أصاب فله أجران. وكان أعلم الثقلين ﷺ يدعو في افتتاح صلاة الليل فيقول: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

النوع الثاني: هداية التوفيق والإلهام، وهي: قبول القلب للحق، وانشراحه به، ومحبته له، وعمله به، وهي القوة العملية الإرادية[2]، يطلب الداعي ذلك من الله الذي: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨]، وقال المؤمنون في الآخرة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) رواه مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - في كتاب الصلاة، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم ٧٧٠. فلما ذكر فصل الله - تعالى - بينهم يوم القيامة طلب أن يكون قبل ذلك من المهتدين.

(٢) أشار للقوة العلمية النظرية والعملية الإرادية ابنُ القيم، انظر: بدائع التفسير، ١ / ١٠٨. وانظر تفصيل ذلك في: منازل العباد بين القوة العلمية والقوة العملية، لهشام آل عقدة، طبع دار طيبة.

ومما يدل على أن المراد هنا عموم الهداية أنه ـ تعالى ـ قال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، ولم يقل: اهدنا إليه، أو اهدنا له؛ ليدل على المعنى الجامع للهداية[1].

معنى الصراط المستقيم، والمقصود به:

معنى الصراط: الطريق الواسع الواضح، مستعار من قولهم: صَرَطَ الطعامَ؛ إذا بلعه وسار في مجراه.

والمستقيم: ضد المعوج، والخط المستقيم هو أقرب خط بين نقطتين، و ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أقرب طريق يوصل العبد إلى ربه وإلى دار كرامته.

والصراط المستقيم: هو طريق معيّن محدّد لأنه معرف بالألف واللام.

والمقصود به في سورة الفاتحة: معرفة الحق، والعمل به، فهذا هو الموصل لرضى الله ودار كرامته.

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ١ / ٢٣٧. وذكر الراغب الأصفهاني، للهداية أربعة أنواع:
فالنوعان الماضيان هما المرتبة الثانية والثالثة، وزاد:
ـ الهداية العامة المشتركة بين الخلق: قال ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، فخلق كل شيء على صورته، وأعطى كل عضو شكله، وهداه إلى ما خلقه له من العمل، ولكل مخلوق ما يناسبه من هذه الهداية.
ـ غاية الهداية: وهي الهداية إلى الجنة أو النار. قال ـ تعالى ـ عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال عن أهل النار: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢ ـ ٢٣]. والهداية المسؤولة في الفاتحة للنوعين الماضيين المفصلين أولاً. انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٨٣٥؛ وانظر: بدائع التفسير، ١ / ٢٥١ ـ ٢٥٢.

أقوال العلماء في المقصود بالصراط المستقيم:

قيل: هو الإسلام؛ ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ ثم قال بعدها: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٥ - ١٢٦]، وقال ﷺ: «ضرب الله صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس: ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا، وداعٍ يدعو من فوق الصراط؛ فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم»[(١)].

وقيل: هو العمل بما في القرآن؛ ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وقيل: هو توحيد العبادة لله؛ ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١].

---

(١) رواه أحمد، ٤ / ١٨٢، ١٨٣، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، وإسناده حسن والحديث صحيح لغيره. انظر: تحقيق المسند ٢٩/ ١٨٢؛ والترمذي في سننه، أبواب الأمثال، باب: ما جاء في مَثَل الله ـ عز وجل ـ لعباده، ص ٦٤٢، رقم ٢٨٥٩، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ والنسائي في الكبرى، ٩ / ٦١؛ والحاكم في المستدرك، ١ / ٧٣، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي؛ وصححه ابن كثير في تفسيره، ١ / ٢٧؛ والألباني في تحقيق مشكاة المصابيح، ١ / ٦٧.

وقيل: هو اتباع محمد ﷺ؛ ويدل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢ – ٥٣].

وقيل: هو اتباع طريق أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ لأن طريق أبي بكر وعمر هو اتباع لطريق محمد ﷺ.

وكل هذه الأقوال تعود إلى معنى واحد يشملها، وهو: إقامة معنى الشهادتين؛ أي: إفراد الله ـ تعالى ـ بالعبادة، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وإفراد الرسول ﷺ بالطاعة، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ.

والشرائع المنزلة كلها تأمر بدين التوحيد واتباع المرسلين، والشيطان يصد بني آدم عن هذا الصراط المستقيم: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]، وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ – ٦١].

ما الفرق بين الصراط المستقيم والطرق المعوجّة؟

هناك فروق جوهرية منها: أن الطريق المعوج أبعد من المستقيم ولا شك، إذا كانا في اتجاه واحد مبدأً ونهاية.

والسير في الطريق المعوج سبب للتأخر وكثرة الصعوبات في الوصول إلى الغاية، بخلاف السير في الطريق المستقيم فهو أسهل وأسرع.

والمستقيم أوضح للسالك وآمن من المعوج الذي يحير ويخيف.

ومن الطرق المعوجّة ـ وما أكثرها ـ ما لا يوصل: فالمنافق، والمشرك، والكافر، وأهل الكتاب بعد سماعهم بمبعث محمد ﷺ ـ إن لم يؤمنوا به ويتبعوه ـ فليس لهم

إلى الله طريق، بل هم إلى النار وبئس القرار، والعياذ بالله. والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أشهر من أن تذكر.

والفاسق الموحّد من المسلمين على طريق معوج بحسب فسقه، وهو في الآخرة تحت مشيئة الله تعالى؛ فإن شاء عذبه بقدر ذنبه، وإن شاء عفا عنه.

وهنا سؤال يرد على المتأمل المتدبّر لهذه الآية: كيف يسأل المسلم المصلي الهداية إلى الصراط المستقيم مع أنه مهتدٍ؟!

والجواب عن ذلك من أوجه:

الوجه الأول: أن الهداية الكاملة للصراط المستقيم ليست بعمل واحد أو في وقت واحد، بل هي: «أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في هذا الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت وما نهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادةٌ جازمةٌ لفعل المأمور، وكراهةٌ جازمةٌ لترك المحظور؛ فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم»[1].

فمن المسلمين مثلاً: من يقوم مثلاً بمائة عمل صالح في اليوم الواحد، سواء أكان هذا العمل الصالح ظاهراً أو باطناً، ومن العمل الصالح طلب العلم النافع، ومنهم من يقوم بأقل من ذلك أو أكثر، فهم حين يطلبون لأنفسهم الهداية فهم يطلبون التكميل في درجاتها.

(١) مجموع الفتاوى، ١٤/ ٣٧-٣٨.

بل إن العمل الصالح الواحد، وإن قام به كثير، فإنهم يختلفون في هدايتهم حال القيام بأدائه ظاهراً وباطناً، ولذلك يصلي اثنان خلف إمام واحد وهما متجاوران، فينتهيان والفرق بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وكذلك اختلافهم في المنازل حال التوكل، والولاء والبراء، والصدقة، والصيام، والحج، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحسن الخلق. . .

الوجه الثاني: أن الهداية ليست مرتبة واحدة، بل هي مراتب كثيرة جداً، تكمل بكمال التقوى، قال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقد امتن ـ تعالى ـ على نبيه ﷺ في صلح الحديبية فقال: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، والمراد زيادة هدايته.

وهناك مراتب الدين الثلاث: الإسلام، وأعلى منها: الإيمان، وأعلى منها: الإحسان، وكل مرتبة لها درجات.

وهناك مرتبة النبوة، وأدنى منها الصدِّيقية، و أدنى منها الشهادة، وأدنى منها الصلاح، ولكل مرتبة منها درجات بحسب العلم وبحسب العمل الظاهر والباطن.

الوجه الثالث: أن العبد يطلب التثبيت والدوام على الهداية حتى الممات، والتثبيت من الله ـ تعالى ـ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ومن أدعية الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]، وأعظم الراسخين في العلم الأنبياء، وأفضلهم خاتمهم محمد ﷺ، وقد كان من أدعيته ﷺ: «اللهم مصرف القلوب:

صرف قلوبنا على طاعتك»[1]، «يا مقلب القلوب: ثبت قلبي على دينك»[2].

فانظر كيف يحرص ﷺ على هذا الدعاء وهو رسول رب العالمين، وسيد ولد آدم أجمعين، وقد وعده الله بالجنة، بل وعده المقام المحمود (الشفاعة الكبرى)، والحوض المورود، والكوثر! وفي دعائه ﷺ - تعالى - اعتراف بفضل الله - تعالى - عليه بالهداية، وأنه ﷺ لا يملكها، ودعوة لربه - تعالى - أن يثبّته عليها، ولا ينقصه من كمالها، بل يزيده في مراتبها.

وأنواع الهداية على التفصيل عشرةُ أنواع هي:

١ أمور قد أتاها على غير وجه الهداية جهلاً؛ فهو محتاج إلى أن يطلب الهداية إلى الحق فيها.

٢ أو يكون عارفاً بالهداية فيها، فأتاها على غير وجهها عمداً؛ فهو محتاج إلى التوبة منها.

٣ أو أمور لم يعرف وجه الهداية فيها علماً ولا عملاً؛ ففاتته الهداية إلى علمها ومعرفتها وإلى قصدها وإرادتها وعملها.

٤ أو أمور قد هدي إليها من وجه دون وجه؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها.

٥ أو أمور قد هدي إلى أصلها دون تفاصيلها؛ فهو محتاج إلى هداية التفصيل.

٦ أو طريق قد هدي إليها، وهو محتاج إلى هداية أخرى فيها؛ فالهداية إلى الطريق شيء، والهداية في نفس الطريق شيء آخر، ألا ترى أن الرجل يعرف أن

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - في كتاب القدر، باب: تصريف الله - تعالى - القلوب كيف شاء، رقم ٦٧٥٠.

(٢) سبق تخريجه، ص ٥٤.

طريق البلد الفلاني هو طريق كذا وكذا، ولكن لا يحسن أن يسلكه؟! فإن سلوكه يحتاج إلى هداية خاصة في نفس السلوك كالسير في وقت كذا دون وقت كذا، وأخذ الماء في مفازة كذا مقدار كذا، والنزول في موضع كذا دون كذا، فهذه هداية في نفس السير قد يهملها من هو عارف بأن الطريق هي هذه فيهلك وينقطع عن المقصود.

❼ وكذلك أيضا ثَمّ أمور هو محتاج إلى أن يحصل له فيها من الهداية في المستقبل مثل ما حصل له في الماضي.

❽ وأمور هو خالٍ عن اعتقاد حق أو باطل فيها؛ فهو محتاج إلى هداية الصواب فيها.

❾ وأمور يعتقد أنه فيها على هدى وهو على ضلالة ولا يشعر؛ فهو محتاج إلى انتقاله عن ذلك الاعتقاد بهداية من الله.

❿ وأمور قد فعلها على وجه الهداية، وهو محتاج إلى أن يهدي غيره إليها ويرشده وينصحه؛ فإهماله ذلك يفوِّت عليه من الهداية بحسبه، كما أن هدايته للغير وتعليمه ونصحه يفتح له باب الهداية، فإن الجزاء من جنس العمل؛ فكلما هدى غيره وعلمه هداه الله وعلمه، فيصير هادياً مهدياً، كما في دعاء النبي ﷺ الذي رواه الترمذي وغيره: «اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين؛ سِلْماً لأوليائك، حرباً لأعدائك؛ نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك»[1].

(١) الحديث رواه الترمذي وابن خزيمة في صحيحه ١١١٩؛ وابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عباس رضي الله عنه؛ ورواه أحمد في مسند ٤/ ٢٦٤ ح ١٨٣٥١؛ وابن أبي شيبة في مسنده ٤٤٢؛ والبيهقي في الدعوات الكبير ٢٢٠؛ والحاكم في المستدرك ح ١٩٢٣؛ وابن حبان ح ١٩٧١؛ والنسائي ح ١٣٠٥ و١٣٠٦؛ وأبو بكر الشافعي في الفوائد الغيلانيات ح ٦١٤؛ وغيرهم عن عمار بن ياسر؛ وصححه محقق المسند ٣٠/ ٢٦٥ لمتابعاته. وانظر: رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه ٧-١٠ تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر.

فدعاؤك بالهداية يستلزم منك الحرص على تحصيل أمرين مهمّين:

أحدهما: العلم النافع، ومذاكرته وحفظه، والزيادة منه، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

الثاني: العمل بالعلم النافع، والزيادة منه، والثبات عليه، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه.

* * *

فائدة لطيفة في توجيه نون الجمع في قوله: ﴿ نَعْبُدُ ﴾، ﴿ نَسْتَعِينُ ﴾، ﴿ اهْدِنَا ﴾.

ما الحكمة من إسناد فعل العبادة والاستعانة والهداية إلى النون الدالة على جمع المتكلمين مع أنه قد يكون الداعي واحداً؟ ولا شك أن الدعاء المشروع يلزم معه التضرع؛ لقوله ـ تعالى ـ: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] والتضرع يستدعي إظهار الضعف والذل، وطلب الهداية هنا جاء على صيغة الجمع فما الجواب؟.

لذلك أجوبة؛ منها:

الأول: أن الداعي يُدخل نفسه في عموم عباد الله الصالحين فلا يظهر نفسه من دونهم، وهذا أذهب لعُجب النفس وعظمتها[1].

(١) ذكر الآلوسي عن بعضهم: أن إسماعيل ﷺ قال: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وصبر، وموسى الكليم ﷺ: ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ [الكهف: ٦٩] ولم يصبر، مع قولهما: إن شاء الله؛ لفضيلة إدخال الإنسان نفسه مع الجماعة في الدعاء والله أعلم. انظر: روح المعاني، ١/ ١٤٦.

الثاني: أن الجمع هنا يظهر كمال الثناء على الله ـ تعالى ـ بكثرة عبيده ومماليكه، فهـم خلـق كثيـر كلهم يطلب الهداية والمعونة من الرب ـ سبحانه وتعالى، كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك، ولا نخالف أمرك، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعاً عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك. ومثل ذلك عامة أدعية القرآن، كآخر سورة البقـرة، وأول آل عمران وآخرها، وغيرها[1].

الثالث: أن العبد يدعـو لنفسـه وإخـوانه المؤمنين، وهـذا فيه اقتـداء بأدب الأنبياء عليهم السلام، قال نوح ﷺ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وقال إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩].

الرابع: وفيه أيضاً مشروعية اهتمام الداعي بإخوانه المسلمين؛ فالمسلم يحب الخير للناس؛ فلا ينساهم؛ فيدعو لنفسه ولهم.

الخامس: ثم إن الفاتحة تجب قراءتها في الصلاة، وهي مشروعة على هيئة الجماعة، أعني الصلاة المفروضة، وفيها ثلاث صلوات جهرية، والإمام يدعو، وكلهم يؤمِّنون لهم ولإخوانهم بعامة، ولو أمّنوا على لفظ مفرد: «اهدني الصراط المستقيم» لصار دعاؤهم للإمام وحده[2]! . والله أعلم.

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ١/ ٢٥٥.

(٢) ومثل الصلاة المفروضة كل ما شرع على هيئة الجماعة؛ كالكسوف والاستسقاء والعيدين والتراويح.

الآية السادسة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

لم ينتهِ دعاء العبد بعد، بل كل ما بعد قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة توضيح لهذا الدعاء وتمييز له، ورغبة في بيان الطريق المرغوب المطلوب، ورهبة وخوف من الطريق المكروه المرهوب.

فلما وصف الطريق بأنه واسع واضح مستقيم، زاد في إيضاحه؛ فوصف من يمشي عليه ويسلكه ويلتزمه ولم يغير ولم يبدل؛ فالسبيل ليس بخالٍ من السالكين فيستوحش سالكه، بل هو مطروق مسلوك، والمشاؤون عليه هم أفضل الخلق.

نعم! مما يهتم به الداعي اليقظ أن يصف دعاءه ويميزه عن غيره مما لا يرضى ولا يحب، وذلك منه دليل اهتمام بسؤاله، فوضحوا طلبهم ودعاءهم بهذا التوضيح الشافي -كما علّمهم الله-؛ لأن الطرق قد تلتبس على السالكين؛ لكثرتها واشتباهها، فبينوا طريقهم المرغوب أنه طريق مَن منّ الله عليهم بالنعمة الخاصة، النعمة المطلقة التي يلازمها الحياة الطيبة والفلاح الدائم؛ لا مطلق النعمة التي لا تستلزم ذلك.

ما هي النعمة؟

النعمة لغة: الحالة الحسنة، وهي لين العيش، وملاءمته لصاحبه، وترفهه به[1]، والإنعام: إيصال الإحسان إلى العقلاء[2].

وهداية الصراط المستقيم أعظم نعمة يؤتيها الله العبد على الإطلاق، فهي أعظم من نعمة الطعام والشراب واللباس، وأعظم من سائر الحواس؛ لما يترتب عليها من نعيم الدنيا الحقيقي، ونعيم الآخرة الأبدي.

وهذه النعمة فضل من الله، والله عليم حكيم حيث يجعل فضله؛ فلا يكترثنّ الداعي بقلة السالكين ما داموا منعَماً عليهم، وهم حقاً قليل؛ ولا يكترثنّ الداعي إذا كان أعداؤهم أكثر عدداً؛ فإنهم الأقل علماً وقدراً، يقول العليم بكل شيء لنبيّه محمد ﷺ وأتباعه: ﴿**وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ**﴾ [**الأنعام**: ١١٦].

من المنعم عليهم؟

لقد بين الله - تعالى - أصناف المنعم عليهم، فقال: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا**﴾ [**النساء**: ٦٩ - ٧٠].

إنها رغبة من الداعي أن يشابه القدوات الحسنة من خيار الخلق؛ فالمنعم عليهم - وهم سالكوا الصراط المستقيم - من أطاع الله وأطاع رسله، وهذا الوصف يدخل فيه كل مسلم موحد لله من جميع المكلفين، من أول الخلق إلى يوم القيامة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، ٥ / ٤٤٦.

(٢) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، ص ٨١٥.

فلما وصف الصراط بالاستقامة، وبيّن في آية أخرى صفات سالكيه، وهم: الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون؛ دل ذلك على أن هذا ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ معنوي لا حسي، يسلكه المنعَم عليهم في الدنيا بالعلم النافع والعمل الصالح، فيوصلهم ذلك إلى رضوان الله، وإلى جنته.

مراتب المهتدين:

المنعم عليهم درجات ـ كما سبق ـ: فأعظمهم الأنبياء، وهم درجات؛ وأفضلهم محمد ﷺ، وهم على الصراط المستقيم، ثم الصدِّيقون؛ وأشهرهم أبو بكر رضي الله عنه، وهم على الصراط المستقيم، ثم الشهداء؛ وأفضلهم حمزة رضي الله عنه، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله[1]، والمؤمن الذي يقتله الدجال[2]، وهم

(١) الحديث رواه الحاكم في المستدرك عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، ٣/ ١٩٥؛ والطبراني في الكبير، ١/ ٣٠٠/ ٢؛ والخطيب في تاريخ بغداد، ٦/ ٣٧٧، و١١/ ٣٠٢، وقال الألباني بعد إيراد طرق الحديث وشواهده: «اطمأن القلب لثبوت الحديث» السلسلة الصحيحة، رقم ٣٧٤، وحسنه في صحيح الجامع الصغير، ص ٦٨٥.

(٢) ففي حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوَجَّهُ قِبَلَهُ رَجُلٌ من الْمُؤْمِنِينَ فَتَلْقَاهُ الْمَسَالِحُ مَسَالِحُ الدَّجَّالِ فَيَقُولُونَ له: أَيْنَ تَعْمِدُ؟ فيقول: أَعْمِدُ إلى هذا الذي خَرَجَ! قال: فَيَقُولُونَ له: أَوَ ما تُؤْمِنُ بِرَبِّنَا؟ فيقول: ما بِرَبِّنَا خَفَاءٌ! فَيَقُولُونَ: اقْتُلُوهُ، فيقول بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَلَيْسَ قد نَهَاكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ تَقْتُلُوا أَحَداً دُونَهُ؟ قال: فَيَنْطَلِقُونَ به إلى الدَّجَّالِ، فإذا رَآهُ الْمُؤْمِنُ قال: يا أَيُّهَا الناس! هذا الدَّجَّالُ الذي ذَكَرَ رسول اللَّهِ ﷺ. قال: فَيَأْمُرُ الدَّجَّالُ بِهِ فَيُشَبَّحُ، فيقول: خُذُوهُ وَشُجُّوهُ، فَيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْباً، قال: فيقول: أَوَ ما تُؤْمِنُ بي؟ قال: فيقول: أنت الْمَسِيحُ الْكَذَّابُ، قال: فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُؤْشَرُ بِالْمِئْشَارِ من مَفْرِقِهِ حتى يُفَرَّقَ بين رِجْلَيْهِ، قال: ثُمَّ يَمْشِي الدَّجَّالُ بين الْقِطْعَتَيْنِ، ثُمَّ يقول له: قُمْ، فَيَسْتَوِي قَائِماً، قال: ثُمَّ يقول له: أَتُؤْمِنُ بي؟ فيقول: ما ازْدَدْتُ فِيكَ إلا بَصِيرَةً، قال: ثُمَّ يقول: يا أَيُّهَا الناس! إنه لَا يَفْعَلُ بَعْدِي بِأَحَدٍ من الناس، قال: فَيَأْخُذُهُ الدَّجَّالُ لِيَذْبَحَهُ فَيُجْعَلَ ما بين رَقَبَتِهِ إلى تَرْقُوَتِهِ نُحَاساً فلا يَسْتَطِيعُ إليه سَبِيلاً، قال: فَيَأْخُذُ بِيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ فَيَقْذِفُ به، فَيَحْسِبُ الناس إنما قَذَفَهُ إلى النَّارِ، وَإِنَّمَا أُلْقِيَ في الْجَنَّةِ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ: «هذا أَعْظَمُ الناس شَهَادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، رواه مسلم برقم ٢٩٣٨.

على الصراط المستقيم، ثم الصالحون درجات كثيرة؛ فأعلاهم من يدخل الجنة بغير حساب، وهم على الصراط المستقيم. ويوصف الشخص بالصلاح ويصيب طرفاً منه إذا دخل في الإسلام وعمل بشرائعه، ويبتعد عن الصلاح إذا قصّر في أداء الواجبات أو قصّر في ترك الكبائر والمحرمات واجتنابها، ولكنه لم يرتكب ناقضاً من نواقض الإسلام ومات على ذلك؛ فالله ـ تعالى ـ قد يعفو عنه فلا يعذبه مطلقاً، أو يعذبه بقدر ذنبه أو أقل من ذنبه، ثم يدخله الجنة بسبب توحيده.

إن المكلفين يسلكون بأعمالهم طرقاً كثيرةً مختلفةً، والله ـ تعالى ـ يعلّمنا أن نسأله التوفيق للطريق الوحيد الموصل إليه، فندرك بذلك الاستجابة لقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ما العلاقة بين الصراط المستقيم في الدنيا والصراط المنصوب على جهنم؟

أخي: اعلم أن سلوك ـ الصراط المستقيم ـ المعنوي في الحياة الدنيا له أثر عظيم في نجاتك حين تسير على الصراط الحسي المنصوب على متن جهنم يوم القيامة، ومن أوصافه المخيفة أنه: «مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء، تكون بنجد يقال لها: السعدان»[(١)]، وقال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: «بلغني أنه أدق من الشعر وأحدّ من السيف»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في كتاب التوحيد، باب: قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]، رقم ٧٤٣٩؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، رقم ٤٥٤.

(٢) رواه مسلم موقوفاً على أبي سعيد رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، بعد رقم ٤٥٥، وله حكم المرفوع. والله أعلم.

واختلف العلماء في الصراط هل هو واسع أو ضيق؟ فقال بعضهم: إن الصراط واسع؛ لأنه دحض مزلة، وقال بعضهم: إنه ضيق؛ لقول أبي سعيد، ولكل منهما حجة، ولم يجزم الشيخ ابن عثيمين ـ رحمه الله ـ بأحد القولين؛ لأن كلاً له حجة قوية فالله أعلم. انظر: شرح العقيدة الواسطية، ٢ / ١٦٠.

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «إن اقتسام الأنوار على حسب إيمانهم وأعمالهم الصالحة، وكذلك مشيهم على الصراط في السرعة والبطء، وذلك أن الإيمان والعمل الصالح في الدنيا هو الصراط المستقيم في الدنيا الذي أمر الله العباد بسلوكه والاستقامة عليه، وأمرهم بسؤال الهداية إليه؛ فمن استقام سيرُه على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ظاهراً وباطناً استقام مشيه على ذلك الصراط المنصوب على متن جهنم؛ ومن لم يستقم سيرُه على هذا الصراط المستقيم في الدنيا، بل انحرف عنه إما إلى فتنة الشبهات أو إلى فتنة الشهوات، كان اختطاف الكلاليب له على صراط جهنم بحسب اختطاف الشبهات والشهوات له عن هذا الصراط المستقيم؛ كما في حديث أبي هريرة: «أنها تخطف الناس بأعمالهم»[1].

فيا من يريد النجاة عند مروره فوق الصراط المنصوب على متن جهنم ـ وكل عاقل حصيف إلى ذلك مبادر ـ: أسلك صراط الله الذي أمرك بسلوكه في الدنيا، فحقق الشهادتين؛ إخلاصاً لله ـ تعالى ـ بالعبادة، وتوحيداً للرسول ﷺ بالطاعة.

وأَحْبِب الأنبياء، وآمن بهم كلهم، ولا تفرّق بين أحد منهم، وأَحْبِب الصدّيقين، وأَحْبِب الشهداء في سبيل إعلاء هذا الدين، وأَحْبِب الصالحين، محبة صادقة لا مدّعاة؛ يصدقها مماثلتهم ومشابهتهم والاقتداء بهم، و «المرء مع من أحب»[2].

(١) التخويف من النار، ص ٢٤٤، والجملة الأخيرة؛ عند مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الإيمان، باب: معرفة طريق الرؤية، رقم ٤٥١؛ وجاءت من حديث أبيّ رضي الله عنه، خرجها البخاري في كتاب الأذان، باب: فضل السجود، رقم ٨٠٦.

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، في كتاب البر والصلة، باب: المرء مع من أحب، رقم ٦٧١٨.

الآية السابعة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾

يبين العبدُ ويزيد الوضوحَ في سؤاله ـ كما علمه الله ـ ؛ فيسأله أن يجنبه طريق من كان منعماً عليه بالهداية إلى الصراط المستقيم ولكنه تنكبه ولم يستقم عليه؛ فترك القوة العملية الإرادية كالمغضوب عليهم، أو ترك القوة العلمية النظرية كالضالين[1].

وهذا الدعاء يستلزم مراعاة العبد نفسه؛ ليسلم مما وقع فيه هذان الفريقان فيحذر طريقهما، ففي الحديث قال ﷺ: «لَتَسْلُكُنَّ سَنَنَ من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضبٍّ لسلكتموه. قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟!»[2] أي: فمن غيرهم؟!

ومعنى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يا رب: جنبّنا طريق المغضوب عليهم.

---

(١) سبق بيان القوتين والمرجع المهم فيهما ص ٥٥.

(٢) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم ٣٤٥٦؛ ومسلم في كتاب العلم، باب: اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم ٢٦٦٩.

أوضح مثال على المغضوب عليهم:

إن أوضح أمة وقع عليها وصف الغضب هنا: هم اليهود بعد تبديلهم وقبل بعثة عيسى ﷺ، والغاضب عليهم هو الله ـ تعالى ـ كما صرح بذلك فقال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، غضب متكرر مرة بعد مرة بحسب أعمالهم، أو هو غضب مضاعف متراكم بعضه فوق بعض[١]، وقال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، وورد بذلك الحديث، فعن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضُلال»[٢]، وهذا التفسير أجمع عليه المفسِّرون[٣].

وعلى المسلم إثبات صفات الله على ما وصف به ـ تعالى ـ نفسه من غير تعطيل ولا تحريف، ولا تمثيل ولا تشبيه؛ إذ هو كما وصف نفسه في محكم التنزيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، ثم قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وإنما أضاف الغضب لما لم يُسمِّ فاعله ولم يصرح به؛ لأمور منها:

١ كمال الأدب في الخطاب، وإن كان قد يصرح به في مواضع أخرى، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠][٤].

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ١/ ٢٤٤ـ٢٤٥.

(٢) رواه أحمد، ٣٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤ح ١٩٣٨١؛ والترمذي في سننه، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، في أول التفسير، رقم ٢٩٥٢ و ٢٩٥٤؛ والطيالسي، ١/ ١٤٠؛ والطبراني في الكبير، ١٧/ ٩٨؛ وحسنه ابن حجر في فتح الباري، ٨/ ١٥٩؛ وصححه أحمد شاكر في تحقيقه لتفسير الطبري، ١/ ١٨٦؛ والألباني في صحيح الجامع، ص ١٣٦٣، وصححه محقق المسند لمتابعتين وشاهد ٣٢/ ١٢٥ـ ١٢٦.

(٣) انظر: الإجماع في التفسير، للشيخ محمد بن عبد العزيز الخضيري، ص ١٣٧ـ ١٤١.

(٤) سبق ذكر نماذج مماثلة من ذلك، انظر حاشية ص ٢٨.

❷ أن الغضب ليس من الله ـ تعالى ـ وحده، بل إن أولياء الله؛ كالملائكة والرسل والصالحين، يغضبون لغضب ربهم تعالى، كما يرضون لرضاه سبحانه[1]. والله أعلم.

ومعنى قوله: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾: أي: ويا رب: جنّبنا طريق الضالين، والضال: هو كل من سلك طريقاً غير مراد بسبب الخطأ، فهو ضال غير مهتدٍ.

أوضح مثال على الضالين:

وأوضح أمة وقع عليها وصف الضلال هنا هم النصارى بعد تبديلهم وقبل مبعث محمد ﷺ، قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، فهذه الآية جاءت بعد ذكر عقيدتهم في تأليه المسيح وعقيدتهم بالتثليث، وفي الحديث عن النبي ﷺ؛ أنه قال: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضُلال»[2]، وهذا التفسير أجمع عليه المفسِّرون[3].

وليس مقصود الآية وصف اليهود بالغضب دون الضلال، ولا وصف النصارى بالضلال دون الغضب، بل ذكر الله لكل ملة أشهر وصف لها، مع أن كلاً منهم مغضوب عليه ضال[4].

ما سبب الغضب على اليهود؟

إن سبب غضب الله ـ تعالى ـ على اليهود؛ أنهم علموا الحق وعرفوه معرفة تامة ثم كفروا به؛ كبراً وحسداً وأثرة وطلباً للرئاسة.

---

(١) انظر: بدائع التفسير، ١ / ٢٣٥.
(٢) سبق تخريجه في الصفحة السابقة، حاشية (٢).
(٣) انظر: الإجماع في التفسير، للشيخ محمد بن عبد العزيز الخضيري، ص ١٣٧ ـ ١٤١.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، ١ / ٢٨.

ومن ذلك: كفرهم بخاتم الأنبياء محمد ﷺ مع أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩][1]، وقبله: عبدوا العجل، وعبدوا عُزيراً، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالآيات البينات المعلومات.

فاليهود عندهم علم تام، ولكن هذا العلم بلا عمل، وحال من علم ولم يعمل بعلمه أن يُغضَب عليه.

ما سبب ضلال النصارى؟

سبب وصف النصارى بالضلال قد يشكل على بعض الناس؛ لكون النصارى هم أتباع عيسى ﷺ؛ فكيف يوصفون بالضلال؟ ولتوضيح ضلالهم المقصود هنا يمكن أن يقال: إن عيسى ﷺ جاء مصدقاً بالتوراة، وآتاه الله الإنجيل فيه بعض التيسير، وبعض الشرائع اليسيرة القليلة، وهناك شيء كثير لم يذكر في الإنجيل فمرجعهم فيه إلى التوراة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٧].

فأصابهم وصف الضلال من هذا الجانب؛ إذ لما بُعث عيسى ـ عليه السلام ـ فآمن به من آمن، وكفر به باقي اليهود كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤]؛ كفرت النصارى بموسى ﷺ، وكفرت بالتوراة، قال ـ

---

(١) ومعنى: ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ أي: يستنصرون الله بمحمد ﷺ على مشركي العرب قبل مبعثه، انظر: جامع البيان ١/ ٤٥٥.

تعالى ـ: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة: ١١٣].

ولما كفرت النصارى بالتوراة، وفيها الشرائع والأحكام الكثيرة الموجودة، ابتدعوا وعملوا بما لم يأذن به الله؛ حيث عملوا من عند أنفسهم على جهالة وضلالة؛ فعندهم نقص في العلم وعندهم اجتهاد وقوة في العمل.

إضافة إلى تميز عباداتهم بالابتداع من مبدأ التثليث إلى الرهبانية وغيرها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد: ٢٧].

والمقصود بالنصارى الضالين مَنْ بعد الحواريين إلى ما قبل بعثة محمد ﷺ، أما مَنْ أتى بعد بعثة محمد ﷺ فهم داخلون في الأمة الغضبية؛ لكمال الحجة وبلوغ العلم. والله أعلم.

هل يختص وصف المغضوب عليهم والضالين باليهود والنصارى؟

لا يختص هذان الوصفان باليهود والنصارى، بل كل من شابههم فله قسط من هذا الوصف، وقد وصف الله الكفار ـ سواء أكان كفرهم أصلياً أم ردة ـ باستحقاق الغضب والضلال، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلالاً بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٧].

بل إن المسلم متوعَّد بغضب من الله إذا قتل أخاه المؤمن عامداً، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣].

وكذلك الزوجُ الملاعِنة الكاذبة متوعّدة بغضب الله عليها إذا كذبت في ملاعنتها : ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور : ٩ .

فالمؤمن يدعو الله ـ تعالى ـ أن يجنبه طريق اليهود ـ ومن شابههم من الفرق والديانات ـ الذين علموا الحق ولكن تخلّفوا عن العمل بما علموا؛ فاستخفُّوا بالدين، وأعرضوا عنه، وتأولوه بالتأويلات البعيدة، وحرّفوه، وبخلوا به فكتموه، وقست قلوبهم، وأمروا الناس ونسوا أنفسهم .

ويدعو الله ـ تعالى ـ أيضاً أن يجنبه طريق النصارى ـ ومن شابههم من الفرق والديانات ـ الذين عملوا ولكن بلا علم؛ فابتدعوا في الدين، وشرعوا ما لم يأذن به الله، وأساؤوا الفهم، وغلوا في الأنبياء والأولياء والصالحين، ونحو ذلك، ولم يصغوا لأهل العلم، والله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] و [الأنبياء : ٧ .

«قال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: كانوا يقولون : مَنْ فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومَنْ فسد من العُبّاد ففيه شبه من النصارى . وكان السلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»[1].

مما سبق نعلم أن الهداية المطلوبة في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ اهْدِنَا ﴾ نوعان:

الأول : العلم النافع، وبذل الجهد في تحصيله، وتعلمه وتعليمه .

الثاني : العمل الصالح بما حصل من علم نافع .

ولقد سار على هذين الأمرين الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون، فعندهم علم نافع أتبعوه عملاً صالحاً، وتجنب أحدهما اليهود حيث تركوا العمل

(١) الفتاوى الكبرى، ٢ / ١٤٢ .

بالعلم، وتجنب أحدهما النصارى حيث عملوا بغير علم، وأما المنعَم عليهم فهم مرضي عنهم لا مغضوب عليهم، مهتدون راشدون لا ضالون.

وهذا يدعو المسلم إلى بذل الوسع، واستفراغ الهمة في طلب العلم النافع، والعمل به ظاهراً وباطناً في كل زمان ومكان؛ فيسلك طرق العلم، ويحرص على رفع الجهل عن نفسه فيما يقربه إلى الله تعالى، ويعبد الله ـ عزّ وجلّ ـ بما يستطيع من شرائعه، ويكرر هذا الدعاء ويستشعر ضرورته الملحّة إليه.

فليس المقصود جمع العلوم، والتحدث فيها بما هو جميل فقط، دون العمل بها باطناً وظاهراً؛ فمن تعلم التوحيد طبقه على نفسه، واختبرها وابتلاها في تعظيمها لخالقها، حيث عَلِمَ من صفات ربه ما علم، وكذا إذا تعلم من الأحكام الشريعة ما تعلم حاسب نفسه على ما علم؛ هل فعل أم ترك؟

أمثلة من أعمال بعض المسلمين المشابهة لليهود والنصارى:

كم من المسلمين يعلم حكم ترك الصلاة ويتركها، ويعلم حكم تحريف الكلم عن مواضعه ويحرف، ويكتم دين الله تعالى، ويتحايل على الدين وهو يعلم حرمة ذلك، ويعلم فرض أداء الزكاة ويبخل بها، ويعلم تحريم قطيعة الرحم ويقطعها، ويعلم تحريم الكذب وهو كذاب، ويعلم أن الربا حرام ويرابي أو يكتب أو يشهد، ويعلم أن الغيبة محرمة وهو يغتاب، ويعلم أن الغش حرام وهو غشاش، ويعلم أن الظلم حرام ويظلم خلق الله، ويعلم أن الإسبال محرم وهو مسبل، ويعلم أن استماع الأغاني والمعازف حرام ويستمع؛ ومن أمثال هذه الأفعال التي اقترن بالعمل بها العلمُ بتحريمها فعلاً وتركاً، يستحق فاعلها غضب الله ـ تعالى ـ عليه، وعقوبته على ذلك بقدر ذنبه، ويصيب شبهاً من اليهود بقدر تركه مما يعلم، من دون عذر مشروع.

وكم من المسلمين ممن يطوف على القبور جاهلاً الحكم، ويجهل بِدْعية الموالد كلها ويحتفل بها تعبداً، ويبتدع قاصداً الأجر والثواب، ويغلو في النبي والولي، ويرفعهما فوق مرتبة العبودية لله، ومن أمثال ذلك من الأعمال التي يقع فيها وهو جاهل الحكم، خاصة مع الاستحسان والقربة بما لم يشرع الله عز وجل؛ فيستحق فاعلها وصف الضلال وجزاءه، ويصيب شبهاً من النصارى بقدر ما فعل.

إن هذا الدعاء العظيم، الذي ترتج به مساجدنا ومصلياتنا، وتلهج به ألسنتنا قد نغفل كثيراً عن معانيه، فلا نستحضرها في سؤالنا وطلبنا، فنحن ندعو ربنا أن يوفقنا للعلم النافع كل صلاة، ولكننا قد لا نحرص على استماع القرآن، وقد لا نعتني بمعرفة معنى كلام الله، وقد لا نحرص على استماع الحديث النبوي ولا على فهم معناه، وقد لا نحرص على استماع الذكر، ولا على التفكر في النفس والكون والآفاق، أو نحن مقصرون في ذلك بنوع من التقصير.

ونحن ندعو ربنا - عز وجل - أن يوفقنا للعمل بما علِمْنا، ولكن نحن قد لا نسلك طريق العمل، بل قد نزداد علماً وننقص عملاً بما علِمْنا.

إن الدعاء للهداية إلى الطريق المستقيم أعظم شيء يحتاجه المكلف، ومن رحمة الله بعباده أن أوجب عليهم هذا في الصلاة، بل جعله ركناً قولياً يجهر به في ثلاث صلوات يومية، ويقرؤه المصلون جميعاً، في الركعات والصلوات السرية فرضاً ونفلاً.

ولكن كم من مسلم يدعو بأن يجنبه الله طريق اليهود والنصارى، وهو يشابههم ويقلدهم ويعظمهم، ويتمنى أن يكون مثلهم في هيئاتهم وأخلاقهم وطبيعة حياتهم! مع أنه يصفهم في دعائه كل ركعة بالمغضوب عليهم والضالين!!

نصف سورة الفاتحة يتضمن عقيدة الولاء والبراء:

وانظر إلى هذا الدعاء، وهو نصف الفاتحة، كيف يكون دالاً على رغبة ومحبة وولاء للمؤمنين بجميع أصنافهم، ورهبة وبغض وبراء من الكافرين بجميع أصنافهم، مع التنصيص على أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ فكيف بمن عداهم من الكفار؟!

هذا الدعاء يقوي ويؤكد الولاء لمن أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ويحث على محبتهم، ويدعو لنصرتهم ومشابهتهم.

كما أنه يقوي ويؤكد البراءة والبغض لليهود والنصارى ومن شابههم، كرهاً ينتج عنه تكفيرهم والبراءة منهم، ومعاداتهم ومفاصلتهم، والبعد عن التشبه بهم؛ فهذا الدعاء تقرير لعقيدة الولاء والبراء، بل إن نصف سورة الفاتحة تأكيد وتقعيد للولاء والبراء.

التأمين على دعاء الفاتحة

يشرع في الصلاة التأمين للإمام والمأموم والمنفرد، ومعنى «آمين»: اللهم استجب لنا. وكم منا - نحن المسلمين - ممن يدعو الله - عز وجل - بما لا يعلم معناه أحياناً، وكم منا من يرتكب ما يخالف دعواه ودعاءه!؟.

وقد ورد في فضل التأمين قوله ﷺ: «إذا أمّن الإمامُ فأمِّنوا؛ فإنه مَنْ وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة، غُفر له ما تقدم من ذنبه»[1].

فاحرص - أخي - على إدراك التأمين كما تحرصُ على إدراك الركوع؛ لتدرك هذا الفضل العظيم.

(١) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الأذان، وغيره بنحوه، باب: جهر المأموم بالتأمين، رقم ٧٨٢؛ ومسلم بلفظه في كتاب الصلاة، باب: التسميع والتحميد والتأمين، رقم ٩١٥.

خاتمة البحث

هذه ملامح مهمة في تفسير هذه السورة العظيمة وهذا الدعاء الضروري الذي حوته. وأختم الحديث عنها بالوصية لكل مسلم أن يحافظ على الصلاة في أوقاتها جماعة في المساجد، وأن يقيمها كما أمر الله تعالى، ومن ذلك أن يتضرع لله جل جلاله بهذا الدعاء دعاء سورة الصلاة حتى يستقيم له دينه، وتحسن استقامته، فتنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر.

وأوصيك أخي الكريم بالوقوف مع معاني هذا الدعاء، واستحضاره ومراجعته فالعلم يُنْسَى؛ ليزيدك الله تعالى من هدايته ورحمته وبركته[1].

(١) جاء في الحديث: «تعاهدوا القرآن فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصياً من الإبل في عقلها» رواه البخاري ٥٠٣٣، ومسلم ٧٩١ عن أبي موسى رضي الله عنه، وتفصّياً رويت عند مسلم (تفلتاً).
وهذا التعاهد لأمرين مهمين:
الأول: هو تعاهد معانيه؛ ليكون بعد ذلك العلم به فالعمل. وهذا التعاهد هو الأهم، وفيه تقصير كبير من أهل القرآن وسائر المسلمين.
والثاني: تعاهد ألفاظه بالمراجعة حتى لا ينسى ما حفظ، وهذا بحمد الله منتشر في بلدان المسلمين في حلقات تحفيظ القرآن الكريم والدور النسائية، فليتنا نهتم مع الحفظ بإدراك معنى الآية باختصار.
والله الموفق.

أسأل الله - تعالى - أن يجعلني وإياك والمسلمين من الهادين المهديين، الراضين المرضيين، غير ضالين ولا مضلين، وأن يقبل دعاءنا، ويثبتنا إلى أن نلقاه.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

فهرس الموضوعات